د. أحمد خالد توفيق

فقاقيع

مكتبة نوميديا 97
Telegram@ Numidia_Library

كيان
KAYAN PUBLISHING

فقاقيع

تأليف :

د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9075

الترقيم الدولي: 978-977-820-033-1

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

فقاقيع

د.أحمد خالد توفيق

قطعة الشيكولاته الأخيرة

(ورقة الكرم الأخيرة) قصة قصيرة شهيرة ومؤثرة جدًا للأديب الأمريكي (أو. هنري)، وتحكي عن فنانة مصدورة مريضة ربطت موتها بسقوط آخر ورقة كرم من على غصن الشجرة خارج النافذة.. الحكاية أن الورقة لم تسقط قط.. فيما بعد استردتْ عافيتها، فعرفتْ أن فنانًا مغمورًا يحبها رسم ورقة زائفة ليوهمها بأن الورقة موجودة وأن في حياتها بقية. ما أتكلم عنه اليوم أقل سموًا ورقيًا لكنه مؤلم بالقدر ذاته. منذ طفولتي يشتري أبي الفاكهة أو يهدينا أحدهم صندوقًا من الشيكولاته، وكنا نقوم باللازم ونجهز على الفاكهة أو الشيكولاته بالكامل. فقط تبقى قطعة شيكولاته أو تفاحة أخيرة.. المهم يبقى شيء ما غير قابل للتوزيع علينا. هذا الشيء الأخير يظل في الثلاجة بانتظار أن يظهر له زملاء قابلون للتقسيم. وفي صباح تعس يختفي من عالمنا نهائيًا.. أين ذهب؟.. لا أحد يعرف. وكبرت وصرت أبًا لكن السؤال السرمدي ما زال يحيرني: أين يذهب الشيء الأخير؟.. هناك من يأخذه لكن من؟.. لست أنا بالتأكيد. ولماذا لا أكون أنا ذلك المحظوظ؟

جاء الاختبار الأعظم في صورة صديق لي عاد من سويسرا، وجلب لي صندوقًا من الشيكولاته الفاخرة التي يذهب مذاقها

بعقلك. أسرتي تتكون من أربعة أفراد.. لهذا منذ البداية عرفت أن عدد قطع الشيكولاته لن يكون من مضاعفات الأربعة أبدًا.. الحياة ليست بهذه البساطة.. ربما هي تسع قطع.. ربما ثلاث عشرة.. المهم أن تلك القطعة الأخيرة اللعينة سوف تظل موجودة في الثلاجة بانتظار مصيرها.. وهو ما حدث بالفعل..

زوجتي وأنا وابني المراهق وابنتي الطفلة مثل المتهمين في قصص أجاثا كريستي.. نتبادل النظرات الإجرامية ونحن نعرف أن أحدنا سوف يفعلها. من هو؟.. يمكن أن اطلب منهم الانتظار لكن إلى متى؟.. ومتى يعود صديق ثان لي من سويسرا بصندوق شيكولاته؟

هكذا وضعنا القطعة في رف الثلاجة، وأقسمت لنفسي أنها ستكون لي. كنت أُخدع وأنا طفل أحمق لأنني كنت طفلاً أحمق، فأي مبرر أقوله لنفسي اليوم؟. بالنسبة لابنتي أنا مطمئن لأن رف الثلاجة أعلى من متناول يدها، لكني قلق من أمر العيال ومن الوغد المراهق الصغير.

في البداية لاحظت أن زوجتي تحوم حول الثلاجة أكثر من اللازم.. قلت لها بلا مناسبة واضحة إننا سننتظر حتى نبتاع بعض الشيكولاته ليصير عدد القطع قابلاً للقسمة على أربعة. بدا عليها الحرج وقالت بسرعة إنها لا تحب الشيكولاته أصلاً.

وجدت الولد يفتح الثلاجة ويقف أمامها وقتًا أطول من

الملازم. سألته عن مشكلته فقال لي:

«أريد شيئًا آكله.. أنا في مرحلة نمو كما تعلم»

كان رأيي أنه نما بما يكفي، ولو نما أكثر من هذا لتحول إلى ثور. ثم ناولته قطعة من الخبز ومثلثًا من الجبن، ووقفت أحرس الثلاجة حتى تأكدت من أنه رحل. مشكلة تواجدهم الرائد حول الثلاجة - حتى لو لم يسرقوا قطعة الشيكولاته هي أنهم لا يتيحون لي فرصة أن أسرقها أنا.

ظللت قلقًا طيلة الليل أتقلب في فراشي.. من حين لآخر أتأكد من أن زوجتي نائمة.. أريد أن أنهض لكن شعورًا بالخجل يمنعني. الأمر ليس بهذا التعقيد ولا يمكن أن تبلغ بي (الدناوة) هذه الدرجة. أنا رجل ناضج في العقد الخامس من العمر، وعندي مشاكل كبرى ولدي مهنتي.. من المستحيل أن أظل ساهرًا لأتسلل إلى المطبخ لأسرق قطعة شيكولاته.. في الماضي كان الزوج يتسلل إلى المطبخ لأن الخادمة الحسناء نائمة هناك، فيا لانحدار اهتمامات أزواج اليوم!

في النهاية انتصرت شهوة الشيكولاته علي، وقررت أن أفعلها مرة في حياتي.. قطعة الشيكولاته الأخيرة ستكون لي أنا لأول مرة في حياتي. خرجت إلى المطبخ في ظلام الصالة وقلبي يتواثب في الضلوع. اتجهت للمطبخ وفتحت الثلاجة.. مددت يدي إلى الرف..

أنت لي.. لقد قالت الأقدار يومًا ما إنك لي!.. وأمسكت بقطعة الشيكولاته. هنا فوجئت بأنها مجرد ورقة مفضضة ملفوفة

عـلى لا شيء!.. هنـاك وغـد مـا قـد أكلهـا ولفهـا بإحـكام لتبـدو كأنها لـم تُمـسّ!.. مـن فعلهـا؟.. لمـاذا تنام زوجـتي بهـذا العمـق؟.. لماذا لـم يصـح ابـني طيلـة الليـل؟

إن قصـة (ورقـة الكـرم الأخـيرة) تتكـرر.. لكـن صـبرًا.. سـوف أعـرف الفاعـل غـدًا صباحًـا عندمـا أعـرف مـن في البيـت يحـب كتابـات (أو. هـنري)!!

سذاجتي

يتعامل المرء أحيانًا بسذاجة غير مقصودة قد تبدو للآخرين خبثًا. أذكر أنني أيام الكلية استعملت لفظة بذيئة جدًا أمام مجموعة من الفتيات، لأنني لم أكن أعرف معناها وحسبتها نوعًا من استعراض براعتي اللغوية. الظريف في الأمر أن وجوههن جميعًا احمرت وبعضهن صدمن، وهو ما يعني أن الآنسات الرقيقات كن جميعًا يعرفن تلك اللفظة!. ذلك الموقف الذي وصفته ذات مرة بـ (ذئب وديع وسط مجموعة من الحملان الشرسة).

عندما عرفت شبكة الإنترنت لأول مرة، تصرفت بسذاجة واستعملتها للحصول على معلومات متخيلاً أن هذا هو الغرض من اختراعها، وفاتني أن الشباب حولوا الإنترنت إلى طريقة للحصول على الأغاني والأفلام والصور إياها فقط. صحيح أن المرء بدأ يتعلم الاستخدام الصحيح للإنترنت، لكنه يتعلم ببطء طبعًا بحكم السن. تلقيت رسالة إلكترونية من قارئ فضل استعمال الإنجليزية، فرددت عليه بلغة إنجليزية مفرطة في عاميتها. لاحظت أن خطابه التالي كان باردًا جدًا إن لم يكن عدوانيًا. وفي نهاية الخطاب سألني في حزم: «ماذا تقصد بلفظة Babe التي ناديتني بها في خطابك بالضبط؟!». كنت أسمع العامية الأمريكية في أفلامهم فأجد

أنهم يخففون لفظة Baby لينطقوها Babe. وبدا لي هذا نوعًا من البلاغة المحببة، لكن كان علي أن أفهم فيما بعد أن babe هذه كناية عن أية فتاة في المواقع الإباحية!. كل هذا بسبب رغبتي في استعراض براعتي اللغوية..

موقف مماثل حدث مع صديق سافر إلى الخارج وأرسل لي قرصًا مدمجًا عليه مجموعة طريفة من الصور المتحركة GIF. كنت بصدد تصميم موقع لي فانتقيت صورة لعينين شيطانيتين ووضعتها في بداية الموقع. مر الأمر على خير إلى أن تلقيت أكثر من رسالة من قراء يقولون لي: «هو أنت من دول؟!» و«صباح الفل». فيما بعد عرفت أن صديقي الوغد نسخ صورة العينين هذه من واحد من أشهر وأهم مواقع البورنو على شبكة الإنترنت!.. لقد كانت هذه الصورة علامة الموقع المميزة!. حاولت أن أزيل الصورة لكن وجدت أني - كالعادة - نسيت كلمة السر التي تتيح لي عمل تغييرات في الموقع. هكذا ستبقى هذه الصورة للأبد تثبت لي أنني ساذج وتثبت للآخرين أنني ذئب!

عندما جربت ذلك النشاط البشري المعروف بالـ (شات)، اتخذت اسمًا مستعارًا طبعًا، ودخلت غرف الحوار لأسمع ما يقولون. لاحظت أنني ساحر وجذاب فعلاً برغم إنني لم أفتح فمي، وأنني أتلقى اتصالات من أجمل مجموعة من الفتيات عرفتها في حياتي. فيما بعد وجدت أن الصور التي أرسلنها لي كانت جميعًا لممثلات أجنبيات شهيرات لا أعرفهن، ولهذا السبب طلقت الشات نهائيًا باعتبار كل ما يُقال فيه

كذبًا.. حتى كلمة (صباح الخير) قد تقال في منتصف الليل.

صحيح إنني ساذج، لكني لم أبلغ بعد درجة السذاجة التي يحسبونني بها، عندما أفتح صندوق بريدي كل يوم لأجد ألف خطاب من ألف زوجة زعيم أفريقي راحل. الزوجة الثكلى تقول إنها (ماجدا لامبو) أرملة الزعيم (أومبا لامبو) الرئيس السابق لجمهورية (كوكو لامبو) الذي - ونطلب له الرحمة - اختلس 150 مليون دولار من مال الشعب وقام بإيداعها في مصرف كذا في جامايكا. المهمة سهلة جدًا هي أن الأرملة بحاجة إلى من يسحب لها هذه النقود والنص بالنص. فقط هي توسمت في شخصي إنني نصاب أمين وإنني سوف أكون خير من يقوم بهذه المهمة. يا سلام!.. اختارتني أنا بالذات من بين كل سكان الكرة الأرضية لأنني أوحي بالثقة!.. أنا المحظوظ الوحيد الذي سوف يظفر بـ 75 مليون دولار. ربما تسخر من الأمر لكن تذكر أن هناك أمريكيين صدقوا القصة وذهبوا إلى جامايكا فعلاً، وهناك تنتظر الأمريكي عصابة كاريبية ممتازة تعطيه علقة لها العجب، وتسرق ماله وجواز سفره وثيابه ثم تلقي به في الشارع عاريًا مفلسًا. لا اشعر بأية شفقة عليه وأرى أنه يستحق هذا.. ماذا ينقص هؤلاء كي يعلنوا أنهم نصابون؟ وبرغم هذا هو مصرّ..

إن الحديث عن السذاجة لا يتوقف، ويحتاج إلى عدة مجلدات، لكن المشكلة هي أن الجميع لا يصدق انك ساذج إلى هذا الحد. إنما أنت تتخابث. كأنه يجب أن أسافر إلى جامايكا وأتلقى علقة من حرم الرئيس (أومبا لامبو) كي

يصدقـوا أنـني سـاذج فعـلاً!

تخنقني أزمنة اللاجدوى

عامة أحاول ألا أصادق أحدًا على الإطلاق لأن الحياة أقصر من نضيعها في العلاقات الاجتماعية. اليوم يزورك ابراهيم الششماوي وزوجته وأطفاله الخمسة، ويقضي الأمسية كلها يحكي لك عن أمجاده ورئيسه الأحمق في العمل الذي لا يفهم أي شيء، بينما تنشغل زوجته في صفع هذا الولد القليل الأدب وضرب هذا وركل ذاك، وينشغل الأطفال في تحطيم كل شيء تحبه أو تعتز به في البيت، وزوجتك تبتسم مؤكدة أن.. كراش ش ش!.. هذا صوت شاشة التلفزيون التي قذفها أحدهم بمطفأة السجائر. زوجتك تؤكد انه لا مشكلة وأننا كنا نتمنى من زمن أن يتحطم هذا التلفزيون. وفي النهاية يرحلون كالمغول تاركين خرابًا وأرضًا محروقة، وعليك أن ترد الزيارة.. ونتيجة رد الزيارة أن يردوا الزيارة!.. لا.. لا يوجد شيء يستحق هذا كله..

لكني إذا صادقت أحرص بشدة على ألا أصادق من يكتبون الشعر خاصة إذا كان رديئًا. لاحظت أن الشعراء المجيدين يبخلون بشعرهم كأنه الدر المكنون فلا يخرجونه إلا لمن يستحق وعندما تمس الحاجة له، بينما الشعراء الـ (نص لبة) - كما يقول المصريون - لا يكفون عن الصراخ بالشعر في كل وقت وكل حين. أذكر واحدًا من هؤلاء كان يكرر قصيدة

بعينها فيها مقطع يقول: «سقطت ذبابة في الدورق». كان يردد هذا المقطع بلا توقف بينما اللعاب يتطاير من فمه والجنون في عينيه. الأسوأ أنه يصرخ في وجهك بعنف، حتى أن من ير المشهد من بعيد يعتقد أنه يصرخ فيك وأنت عاجز عن الرد.

هناك دائمًا تلك الأجندة المكتنزة بالقصائد تحت إبطه. في أية لحظة يخرجها ليبدأ في الصراخ. تمر أنت بمرحلة الإصغاء فالابتسام فالاكتفاء فهز الرأس فإظهار الملل فالتذمر الصريح فالهلع ومحاولة الهروب، لكنه مصر على أن ينهي المعلقة.. وقد قلت مرارًا إنه لا شيء سوى الديناميت في الفم يقدر على جعل الشاعر المتحمس يتوقف..

كل كلامه مفتعل بطريقة فظيعة. لا يقول (تصبحون على خير) وإنما (تصبحون على اكتمال). حتى أتمنى أن أسمع ما يقوله للبقال عندما يشتري جبنًا، أو عندما يشكو للسباك من انسداد بالوعة الحمام. مستحيل أن يتكلم بلغة العامة مثلنا.

أذكر أن أحدهم وقف ينشد لي الشعر في محطة القطار، وأنا أكرر استحساني بينما القطار يصفر منذرًا لآخر مرة.. لو لم تركب فهي مشكلتك وعليك أن تمضي ليلتك هنا.. لكنه مستمر.. مستمر.. هكذا لم أجد بدًا من تركه بلا كلمة والركض للحاق بالقطار.

ثم تأتي لحظة المظروف!.. المظروف المكتنز المليء

بالشعر الذي يعطيه لك، ويطلب رأيك فيه خلال يوم كأن المطبعة في الانتظار. تحمله عائدًا للبيت كأنك تحمل صحيفة ذنوبك.

أما العمل الأخطر فهو أن تحضر مهرجانًا شعريًا يؤمه هذا الطراز من الشعراء. عامة هناك نوعان من الشعر حاليًا.. شعر (أتدحرج عبر الطرقات الشتوية.. تخنقني أزمنة اللاجدوى..) وهذا النوع من الشعر لابد أن يظهر فيه دون كيشوت في لحظة ما. هناك أكثر من (نهد) ومقطع يحوي تجديفًا يقشعر له جسدك يضعونه خصيصًا كي يثير غضب الجهات الدينية فتنشأ معركة على حرية الإبداع والرقابة على الضمائر.. الخ.. وهي معركة تنتهي ببيع كل نسخ الديوان على كل حال. لابد من كلمة (يا سيدتي) هنا وهناك لإضفاء لمسة نزار قبانية على الموضوع. النوع الثاني من الشعر السائد حاليًا هو (مات الذي قد كان نبراسا.. من بعده ساد الأسى الناسا).. سوف تسمع الكثير جدًا من هذا الكلام حتى ينفجر رأسك، ثم يظهر ناقد يمط شفته السفلى في قرف ويتكلم عن:«البنية الإبداعية الكوزموبوليتانية في إرهاصات ما بعد الحداثة. هذه هي الممارسة المنهجية القولية النقدية تكشف عن نفسها داخل الطرح البنيوي».

نعم.. إن الشعراء خطر داهم يمكن أن يدفعك للانتحار ما لم تكن قد انتحرت فعلاً حتى هذه اللحظة. على أني شعرت أن بوسعي أن أحبهم، عندما دعوت ثلاثة منهم إلى عزومة من (لحمة الراس) في مطعم قريب، ورأيت كيف

يلتهمون الطعام في نهم شعري وكيف يفرغون العظام من النخاع ويقذفون أصابع الممبار ثلاثًا في أشداقهم. عندها عرفت أن الشاعرية الإبداعية الكوزموبوليتانية قد تغزو كل جزء في كيانك، لكنها تترك معدتك بشرية كما هي.

سيما.. سيما

قررت لفترة أن أتابع الأفلام العربية الحديثة التي تقدم على الفضائيات، على الأقل لأرى ما يراه أولادي طيلة اليوم. لسبب ما شعرت للحظة بأنني أرى الفيلم ذاته ألف مرة، فدائمًا هناك مجموعة من الشباب.. عادل يحب منى ومها تحب سمير ومنى تشعر أن مصطفى يحبها، لكنه في الحقيقة يحب مها، وسلوى تخدع مصطفى وتقنعه أن كوثر لا تحبه، بينما سمير يحب معتز. المهم أن هناك حشدًا من كل أنواع وألوان الفتية والفتيات بحيث يضمن الفيلم ألا يفلت منه مشاهد واحد. ثم يظهر مطرب شبابي ما من مكان ما ليغني أغنية شبابية ما، بصوت رخيم مسروق.. يعني ليس صوته وإنما هو يصطنعه اصطناعًا. ويذهب الجميع إلى شرم الشيخ ليرقصوا بالمايوهات على الشط، ثم يظهر (حسن حسني) الممثل المصري الذي صار جزءًا من تقنيات السينما كالتصوير والمونتاج والموسيقا التصويرية وحسن حسني. هناك البيه الشرير الذي يريد تهريب المخدرات أو غسيل الأموال وهو غالبًا سامي العدل. رأيت ألف مرة إرهابيين عالميين ملثمين ينوون اغتيال شخصية سياسية مهمة، ورأيت مليون مرة البطل يقفز قفزة جانبية واسعة ليطلق الرصاص بمسدسين نحونا وهو مستمر في السقوط بالسرعة البطيئة. لو كنت لا تعرف كيف تسقط بالسرعة البطيئة فأنت لا تصلح

بطلاً لأفلام الأكشن. كما رأيت فريقًا من الرجال الأشداء يتقدمون صفًا بالعرض نحو الكاميرا بذات السرعة البطيئة بينما انفجار مروع - بطئ هو الآخر - يدوي خلفهم. ولا واحد منهم يلتفت للخلف لأنهم أشداء كما تعلم. من ير هذه الأفلام يعتقد أننا نعيش في شيكاغو في عصر تحريم الخمور. لابد من قصيدة لأحمد فؤاد نجم ومظاهرة وحرق العلم الاسرائيلي.. هذه أشياء قد لا يكون لها أي دور في الفيلم لكنهم يطلقون عليها (التوابل السياسية). وكما قلت هي توابل لهذا لا يكثرون منها حتى لا يفسد طعم الطبخة.

فقط كدت أصاب بانهيار عصبي عندما عرفت أن هذا كله ليس فيلمًا واحدًا بل عدة أفلام. والأسوأ أن هذا كله استنساخ للسينما الأمريكية حتى لقطة الرجال الذين يتقدمون صفًا بالسرعة البطيئة ليخربوا بيتك. هذه الأشياء فعلتها السينما الأمريكية وما زالت تفعلها، لكنها بالطبع فعلتها أولاً وفعلتها أفضل بحكم الإمكانيات.

عندما قدمت ساندرا نشأت فيلم (ملاكي اسكندرية) تفاءلت بهذه التقنيات الجديدة وألعاب الكاميرا، لأنها جددت بعض دماء السينما المصرية المتجمدة. المشكلة بعد هذه الأعوام أن الجميع قلد ساندرا نشأت إلى درجة أن الدماء الجديدة تجمدت بدورها!

في الماضي كان الموظف هو الذي يفرض السينما التي يريد أن يراها، لهذا كان بطل الفيلم موظفًا أو معلمًا أو محاميًا. ثم بدأ نجم الحرفيين يعلو في مصر هكذا فرضوا

السينما الخاصة بهم، وهي المرحلة التي اشتهرت بـ (سينما البدنجان)، ثم جاء الشباب من جمهور المولات الذي يريد أن يرى فيلمًا خفيفًا يناسبه هو وفتاته، وهو مستعد لدفع التذكرة الغالية نسبيًا. هكذا تكيفت صناعة السينما بالكامل لإرضاء هذا الشاب الذي يريد أن :

١- يرى بعض حكايات أصحابه في الكلية على الشاشة.

٢ - يرى عدة فتيات جميلات يلبسن آخر موضة.

٣- يسمع أغنية من ألبوم المطرب (شادي زبادي) الجديد

٤- يرى عدة مطاردات وسيارات تنقلب وتحترق على سبيل إخراج طاقة التخريب الدفينة فيه.

٥- بعض الحوار اللاذع (الروش) والنكات اللفظية.

٦- لا بأس بجزء سياسي يشعره بأنه ثائر وليس تافهًا إلى الحد الذي يعتقده أبوه.

وهكذا تحولت صناعة السينما المصرية بالكامل ويبدو أنها ستبقى كذلك لفترة طويلة جدًا. بعض الأفلام الجادة العميقة تخرج رأسها من الحجر من فترة لأخرى مثل (ملك وكتابة) و(شقة في مصر الجديدة) و(خال من الكولستيرول) و(بوابة الشمس)، لكن رأسها يقطع فورًا باعتبارها تجديفًا صريحًا.

وبما أن أولادي لا يكفون عن مشاهدة هذه الأفلام والاستمتاع بها للمرة الألف، فليس عندي تفسير سوى إنني غبي أنجب

عباقـرة، أو عبقـري أنجـب أغبيـاء. الاحتمـال المخيـف أن نكـون جميعًـا أغبيـاء ونحـن لا نـدرك ذلـك، ويكـون العبقـري الوحيـد هـو جـاري الـذي أقلـع نهائيًـا عـن فتـح جهـاز التلفزيـون. لا لـم يبعـه لأنـه مـا زال يجـده مفيـدًا كمنضـدة يضـع عليهـا النظـارة والسـاعة عندمـا ينـام!

كلي يا حبيبتي

نعم يا (رانية).. أعرف أنك تحبينني وأنك تتعذبين، وأنك لا ترغبين في تذوق طعم الزاد إلى أن نصير معًا للأبد، لكن لبدنك عليك حقًا، ولهذا أتيت بك إلى هذا المطعم الفاخر كي أطعمك قليلاً.. حتى تجدي في عروقك القدرة على المزيد من الحب والحزن..

كُلي.. كُلي يا صغيرتي.. أمامي فنجان القهوة السوداء.. لا أريد سواها لأنها رخيصة. لأنها أقرب إلى الاكتئاب الذي أمر به. إن الحياة من دون حبيبتي ليست حياة أصلاً.. لهذا أشرب القهوة السوداء كي تمزق معدتي وكي ترفع ضغط دمي إلى أن تنفجر شرايين مخي.

نعم.. التهمي السلاطات كلها.. ما شاء الله.. إن أكل السلاطة بالشوكة لا يسمح للمرء سوى بالتقاط أقل القليل، لكنك تغرسين الشوكة فيفرغ الطبق.. خبز أيضًا؟.. هل تريدين بعض الماء كي يساعد على البلع؟.. تذكرت أشعب الطفيلي عندما كان مع ابنه في حفل زفاف وشرب الصبي كوب ماء فصفعه أبوه قائلاً: لو أنك اتخذت بدلاً من هذا الماء بضع لقيمات!.. قال الصبي: إن كوب الماء يفرغ مكانًا لمزيد من الطعام. هنا صفعه أشعب ثانية قائلاً: لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟!!

ها ها!.. لماذا تذكرت هذه القصة الآن؟.. لا أعرف.. اشربي الحساء يا صغيرتي الرقيقة المعذبة.. لا. لا داعي للشرب من الطبق مباشرة.. اشربي بالملعقة..

نعم يا رانية.. إن قصة حبنا خالدة ولن تموت، حتى لو كان أهلك لا يوافقون على شخصي لأنني فقير ولأنني ثقيل الظل ذو وجه عكر. تلتهمين المكرونة الآن.. أنا فعلاً معجب ببراعتك.. الشوكة لا تقدر إلا على حمل حفنة من أعواد المكرونة لكنك تنقلين بها نصف الطبق إلى فمك..

اشربي بعض الماء.. أنت تفرطين في وضع أحمر الشفاه كأنك أكلت إنسانًا حيًا.. لا.. هذه صلصة المكرونة..!.. معجب أنا بطريقتك في تفسيخ لحم الدجاجة.. إن هي إلا لمسة واحدة وتحولت الدجاجة إلى أشلاء. لم أر أحدًا يفعل هذا سواك وسوى (أبو لهب) في فيلم (فجر الإسلام). جميل.. جميل.. يسعدني أن ارى فمك الدقيق الصغير يمحو كل أثر للدجاج هنا..

المزيد من الكباب؟.. أنت تنقلين أصابع الكفتة إلى فمك برشاقة رائعة.. إصبع.. إصبعان.. ثلاثة.. لا.. هذا إصبعك أنت فلا تأكليه من فضلك.. أنا سعيد جدًا لأنك تأكلين.. سعيد لدرجة أنني سأطلب فنجان قهوة آخر..

ماذا كنا نقول؟.. آه.. الحب والحاجة إلى أن نكون معًا للأبد.. إن أباك رجل قاس وأمك... لا!.. لا داعي للعق الطبق بعد أن أكلت اللحم. أعرف أنه مبلل بالصلصة

الشهية المتخلفة عن الشواء، لكن المنظر غير محبب.. أحب طريقتك الرشيقة في شرب المياه الغازية. ثم تتجشئين في رشاقة قبل أن تنتقلي لطبق آخر..

آه.. الجمبري.. في مصر يسمونه الجمبري وفي الخليج يسمونه الروبيان.. لا مشكلة.. المهم أنه يختفي من على ظهر البسيطة بسرعة البرق. على فكرة.. عرفت صديقين درسا في أكبر معاهد السياحة والفنادق، وبرغم هذا يعجزان عن انتزاع لحم السمكة بضربة سكين واحدة كما تفعلين أنت!!.. أنت جميلة وبارعة حقًا..

بطيخ مع السمك؟.. للناس فيما يعشقون مذاهب.. حبات العنب مع البطيخ في شوكة واحدة ثم تغمسين هذا كله في الآيس كريم قبل أن ترفعيه لفمك.. فكرة جميلة فذكريني بأن أجربها.. الأجمل أنك تتبعين هذا بإصبع من الكفتة!.. ثم كوب من الماء..

عندما نتزوج يا رانية سوف أصحبك لهذا المطعم كل يوم فمن الواضح أنه يروق لك.. معجزة حقيقية أن تتمتعي بهذه الشهية وتحتفظي برشاقتك. تقولين إن هذه الشهية ليست من عاداتك لكنك سعيدة الليلة.. أدعو الله ألا تسعدي.. أن تسعدي للأبد ما دام هذا يجعلك تأكلين بشهية..

تريدين عود خلة؟.. هل ستأكلينه هو الآخر؟.. أه.. تريدين تنظيف أسنانك.. حسن.. سوف أحضر لك علبة كاملة..

كلام كثير يا رانية أريد أن أقوله لك، لكنك تفضلين أن

ننتظر حتى تصل الحلوى.. ظننتها وصلت فعلاً!.. ليكن.. أنا فقط بحاجة إلى إجراء مكالمة مهمة ويجب أن أبحث عن هاتف هنا. تقولين إن هاتفي الخلوي يطل من جيبي؟.. ربما كنت كذلك بحاجة إلى دخول الحمام.. المهم إنني مضطر للنهوض.. كلي واستمتعي بالحلوى إلى أن أعود.. إن تأخرت لا تقلقي.. سأعود بالتأكيد وحياة عينيك الجميلتين، وعندها نتكلم عن حياتنا معًا.. عن اللحظة التي تصيرين فيها زوجتي وأكون مسئولاً عن طعامك وشرابك وملبسك..

إن أباك رجل عظيم حقًا.. تقولين لي: ما هي المناسبة؟.. أقول إنه مجرد خاطر عابر.. لا تتحركي من مكانك. سأجري المكالمة وأدخل الحمام ثم أعود.....

ملاك صغير جدًا

أحب الأطفال جدًا وأراهم رحيق الحياة وعبقها، لكن هذا وهُم صغار جدًا أقرب لقطط صغيرة هشة ندية لعوب، فإذا تحولوا إلى تلك الكائنات المرعبة ذات الأسنان الأمامية الناقصة والميركيروكروم على الركب، فإنني أكرههم كالطاعون.. هذه الكائنات المرعبة تمزق كتبك وتبعثر أوراقك وتخدش سيارتك بالمسامير وتقذف الطوب على رأسك، فإذا حاولت الانتقام قال المجتمع: «إياك أن تلمس هؤلاء الملائكة الصغار أيها السادي المنحرف!».

عندما تزوج (عصام) واختلى بعروسه (لمياء) في عش الزوجية لم يكن يعلم بهذا. كان قلبه يخفق كالطبل المجنون عندما قُرع باب البيت فاتجه ليفتحه. الواقف على الباب كان صبيًا في السابعة ينسكب شعره الأسود الفاحم على نصف وجهه، وفي عينيه نظرة شقية لطيفة.

-«أنا (ميدو).. ابن الجيران..»

معلومات جميلة جدًا ولكنها كافية، هكذا أوشك عصام على غلق الباب، لولا أن (لمياء) هرعت ترحب بالطفل الجميل عالمة أن هذا من تقاليد الأنوثة. أدخلته وقدمت له بعض الحلوى وراحت تثرثر معه وتقبله، ثم فتحت جهاز

التلفزيون ليشاهد (سبيس تونز) معها. ظل عصام يروح ويجيء في الشقة منتظرًا أن ينتهي كل هذا الهراء.. لكن ميدو الملاك الصغير جائع.. قامت لتسخن له بعض الطعام فأكل وشبع، ثم استلقى على الأريكة وغاب في نعاس عميق. أوشك عصام على حمله لرميه خارج الشقة، لكنها صاحت في جزع:

-«سوف توقظه!!»

وحملت الشيطان الصغير إلى فراش الزوجية ونزعت حذائيه ثم غطته بشرشف خفيف. وتركته لينام براحته.. حاول عصام إقناعها أكثر من مرة بأن أسرة الصبي -حتمًا- قلقة عليه، لكنها أخرسته بنظرة حازمة تقول بوضوح: «يبدو أنك لست الرجل الذي ظننته.. الرجل الذي يعامل هذا الملاك الصغير بقسوة لا يؤتمن على زوجة رقيقة مثلي».

ثلاث ساعات والوغد الصغير نائم، مما يدل على أنه بلا أهل، أو أن أهله سعداء للتخلص منه. في النهاية استيقظ من النوم فجلس في الصالة يشاهد (سبيس تونز) بينما هرعت (لمياء) تعد له بعض عصير الفاكهة. في النهاية وقد انتهى عصام تمامًا وصار يفتح عينيه بمعجزة، أعلن ميدو أنه سيعود حتى لا تقلق عليه ماما.. ووعدهما بأن يزورهما كثيرًا جدًا..

بدأ الأمر يدخل دائرة الخطر عندما فتح عصام الباب في السابعة من صباح اليوم التالي، وهو منكوش الشعر حافي

القدمين، ليجد ميدو يسأل عن طانط (لمياء). وسرعان ما كان يقتحم الشقة ويهرع إلى غرفة النوم ليوقظ العروس النائمة.. لقد صار المشي في الشقة حقًا مكتسبًا له لأنه ملاك صغير كما تعلم.

في موعد الغداء أعدت لمياء بعض دبابيس الدجاج المقلية.. هنا دق جرس الباب ودخل ميدو وفي يده إصبعان من الكفتة وفي اليد الأخرى عود خشبي غرست فيه قطع من (الشيش طاووق). سأل عما يأكلان فأصرت لمياء على أن تدس في يده بعض دبابيس الدجاج. وهكذا غادر الشقة راضيًا وقد نسف غداء العروسين تمامًا فلم يبق لديهما ما يأكلانه إلا السلاطة. وفوجئ عصام به يصعد الدرج قاصدًا شقة أخرى!.. إذن هذا الشيطان الصغير يمر على شقق البناية ليجمع اللحم من كل شقة!.. هو لا يضيع وقته في جمع الفاكهة أو الأرز بل هدفه محدد وواضح.. النتيجة أن البناية كلها صارت تعج بالجياع!

بعد ساعتين عاد الصبي لينام على الأريكة ثلاث ساعات كاملة. على الأقل في هذه المرة جاءت أمه وهنأت العريسين، وقالت إن ميدو يحبهما جدًا لكنها تشعر ببعض الخجل لأنه يضايقهما.. قالت لمياء إنه لا شيء يسعدها مثل رؤيته.. هكذا صاحت السيدة في مرح:

-«وهو لا شيء يسعده أكثر من هذا.. فلتبق معهما يا ميدو ولكن لا تتأخر عن العاشرة مساء!»

وتركته.. وعندما بدأ يصرخ طالبًا لعبة أصرت لمياء على أن يأخذه عصام إلى السوبر ماركت ليبتاع ما يريد لأنه ملاك صغير. هكذا نزل عصام معه وهو يسب ويلعن في سره، وهناك شعر بأن الصبي لا يختار لعبة وإنما هو يقوم بتعبئة جوال بطاطس في حقل.. إنه ينتقي ألعابًا لا يريدها ولا تهمه في شيء فقط لتكون عنده, ولربما كي يحرم صاحب السوبر ماركت منها!

هكذا تحولت حياة عصام إلى جحيم بسبب ميدو الموجود في كل زمان وكل ومكان.. هذا الصبي أكبر من الواقع.. أكبر من الحياة ذاتها.. إنه كابوس..

وكيف انتهت القصة؟.. بما أننا نعرف أنها لن تنتهي إلا بالطلاق أو الانتحار أو قتل الملاك الصغير، وبما أن هذا المقال يفترض أنه فكاهي، فإنني سأنهي القصة عند هذا الحد وأترك تصور النهاية لخيالك الخاص!

الشفرة الغذائية

عندما تلقيت الدعوة على الإفطار في رمضان من ذلك المنتدى على الإنترنت، قبلت على الفور ومن دون تفكير.. لا يجب أن ينتظر المرء ليفكر عندما يتعلق الأمر بالطعام المجاني. وهناك مثل صعيدي لا أذكر نصه يقول: «لا أحد يموت من الأكل.. من يمت يمت جوعًا!». صحيح أنني سأسافر من مدينتي إلى القاهرة، ويكون علي أن أعود بعد الإفطار بمعدة ممتلئة وجسد متثاقل، وحجاب حاجز مرتفع، ومخ تدنى الأكسجين الواصل له، لكني قلت إن الأكل يأتي أولاً وبعد هذا نفكر.

هكذا أرسلت موافقتي..

بعد يومين كان هناك حادث سياسي جلل تكلمت عنه الصحف، فدخلت ذلك المنتدى لأعرف رأي الشباب وما يقولون.. هنا وجدت هذه السطور المرعبة:

ـ«الدمار المدمر: حساء ودجاج بانيه.. رجل المستحيل: مكرونة ولحم مسلوق.. فتاة الغد: مكرونة وحساء ودجاج بانيه..»

وهكذا على امتداد ثلاث صفحات كاملة.. وقد أصابني الرعب لأنني افترضت أن هذه شفرة مهمة، ويبدو أن شباب

هـذا المنتـدى قـرروا أن يقومـوا بعمليـات عـلى أعـلى درجـة مـن الخطـورة..

إن الشـفرات المتعلقـة بـالأكل شـهيرة جـدًا في العالـم العـربي.. أذكـر أن شـفرة التحذيـر مـن هجـوم مـن ناحيـة إسرائيـل في حرب ١٩٦٧ كانـت (عنـب.. عنـب.. عنـب).. وهـي الإشـارة الـتي أرسـلها الشـهيد (عبـد المنعـم ريـاض) فجـر يـوم ٥ يونيـو فلـم يتلقهـا أحـد أو تلقوهـا وحسـبوا أنـه رجـل يشـتهي العنـب، أو أنـه يتنبـأ بأغنيـة سـعد الصغـير الـتي سـيغنيها بعـد هـذا بأربعـين عامًـا (العنـب. العنـب)..

أذكـر كذلـك الشـفرة الـتي سـمعناها مـن إذاعـة فتـح وتقـول: «الويسـكي في الطريـق.. واصلـوا الرقـص.. الله معكـم!».. طبعًـا معناهـا هـو (الذخـيرة قادمـة.. اسـتمروا في المقاومـة.. الله معكـم)..

هنـاك شـفرة شـهيرة جـدًا هـي (السـنجة في الرنجـة) وتعـني القتـل الفـوري، وقـد اسـتعملت في أحـد أفـلام فـؤاد المهنـدس، واشـتهرت مـع شـفرات أخـرى غـير غذائيـة مثـل (الفلـة في الفانلة) و(العمليـة في النمليـة).. و(القـزازة في الـبزازة)..

المهـم أن الذعـر أصابـني ورحـت أتخيـل مـا قـد تعنيـه (مكرونـة ودجـاج بانيـه) هـذه، وهـل عـلي أن أنصحهـم بالـتروي أم لا؟.. ثـم فوجئـت باسـمي وأمامـه العبـارة الرهيبـة (مكرونـة ودجـاج مشـوي).. يـا نهـار اسـود!!

هنـا فهمـت.. إنهـم يحـصرون مـا ينـوي أن يأكلـه كل واحـد

من ضيوف الإفطار. وهو نشاط محمود، لكن لا أفهم أن يأخذ كل هذه المساحة على الإنترنت.. دعك من أنني ريفي أعتبر الأكل من الأسرار الحميمة، لهذا لا أفهم أن يذاع على الملأ ليقرأه كل من يقرأ العربية على ظهر الكوكب.. نفس المنطق الذي يجعلني عاجزًا عن فهم إعلانات الزواج التي تخبر الجميع أن فلانة ستنام في فراش فلان هذه الليلة!

تمنيت لو استطعت رفع اسمي من هذه القائمة الرهيبة.. لكن الأوان قد فات على كل حال..

وفي اليوم الموعود ذهبت إلى الإفطار.. جلست إلى المائدة خافض الرأس كاسف البال، هنا وجدت أنهم وضعوا أمام كل منا طبقًا فيه أرز وربع دجاجة مع برام خضار لكل ثلاثة.. لم أفهم السبب لكنهم قالوا لي إنهم وحدوا وجبة الطعام منعًا لحدوث ارتباك..

إذن ما لزوم حملة التشهير هذه على الإنترنت؟..

تناولنا الإفطار والحمد لله أنني لم أشبع بما يكفي.. هؤلاء القوم لا يملكون فكرة عن شهيتي، فهذا الذي أكلته هو أقرب إلى التمر الذي أغير ريقي به بعد الصيام.. هكذا وجدت في نفسي القوة والعافية اللتين تسمحان لي بالسفر عائدًا إلى مدينتي. سألوني عما يدعوني إلى الإسراع فقلت في جدية: :«أريد أن أتناول الإفطار.. أنا جائع!»

وما زالت تلك الصفحات موجودة على الإنترنت بعد عامين، لتعلن بوضوح أننا مجموعة من الشرهين الذين اجتمعوا ذات

يـوم في رمضـان لالتهـام الدجـاج والأرز والمكرونـة واللحـم. هـذا بالطبـع إلى أن تشـك المخابـرات المركزيـة الأمريكيـة في أن هـذه الصفحـة تحتـوي شـفرة غامضـة رهيبـة، وترسـلنا جميعًـا إلى جوانتانامـو!

كلب عجوز وحيلة جديدة

كان من سوء حظي أنني تعلمت قيادة السيارات على كبر، وفعلت هذا مضطرًا لأنهم قالوا لي إن الطبيب يجب أن يملك سيارة. كنت أعتقد أن الطبيب هو الذي يكشف على المريض ويكتب له العلاج وليس سيارته، لكنهم أكدوا لي أنني أحمق كالعادة..

هكذا اضطررت آسفًا لشراء سيارة.. واضطررت آسفًا لتعلم القيادة. الرجل الذي تولى مهمة تعليمي قاد السيارة إلى منطقة نائية قرب الحقول، ثم ترجل وطلب مني أن أحتل مقعد القيادة، وقال بلهجة تقريرية:

ـ«دس على البنزين والدبرياج معًا ثم عشق السرعة الأولى، وارفع قدمك ببطء عن الدبرياج، وزد البنزين، ثم انتقل للسرعة الثانية.. هيا!»

كل هذا جميل، لكني لا أعرف ما هي السرعة الأولى ولا الثانية ولا أعرف ما هو (الدبرياج).. هذا الأحمق يعتقد أنه يكلم (مايكل شوماخر). ولو كنت بهذه البراعة فلماذا طلبتك أصلاً؟..

في النهاية تحركت العربة فراح يطلق التهليل ويمتدح براعتي المذهلة.. إنني أقود السيارة كما تسبح السمكة في

النهـر.. كمـا يحلـق العصفـور في سـماء صافيـة.. كمـا..

ثـم أدرك أننـا لا نتقـدم.. وبرعـب لاحـظ أننـا نرجـع للخلـف.. اكتمـل رعبـه عندمـا أدرك أن مـا يوجـد بالخلـف هـو بركـة كبـيرة عميقـة..!

فجأة راح يصرخ في هستيريا:

ـ«دس الفرملـة!.. لا تضغـط البنزيـن!.. شـد فرملـة اليـد!.. توقـاااف!»

شرحـت لـه في هـدوء ونحـن نواصـل رحلـة الغـرق ماشـين للخلـف أنـني لا أعـرف مـكان الفرملـة، ولا أعـرف أيـن فرملـة اليـد هـذه..

كان قـد عـاد لصوابـه فشـد فرملـة اليـد في اللحظـة الأخـيرة، ثـم سـقط مغشـيًا عليـه لبعـض دقائـق. لا أعـرف سـبب توتـره لهـذا الحـد.. المفـترض أنـه محـترف..

عـلى كل حـال واصلـت الـدروس معـه، وجـاء اليـوم الـذي قـال لي فيـه بوجـه شـاحب غـارق بالعـرق إنـني صرت مؤهـلاً لأمـشي في الطرقـات وحـدي، وودعـني وأطلـق سـاقيه للريـح.. لا أذكـر أن شـعر رأسـه كان أبيـض عندمـا بدأنـا الـدروس لكـني أرجـح أنـه كان يصبغـه وكـف عـن ذلـك..

هكـذا قـررت أن أبـدأ وحـدي تجربـة القيـادة.. ركبـت السـيارة وانطلقـت..

لاحظـت أن هنـاك صفًـا طويـلاً مـن السـائقين العصبيـين

بمشون خلفي ولا يكفون عن إطلاق آلة التنبيه.. ماذا أصاب الناس ليصيروا بهذه الوقاحة؟.. كنت أعتقد أن السير بالسيارة يعتمد على استعمال السرعة الأولى فقط، أما السرعات الباقية فهي هنا من أجل الشباب الرقيع الذي يسبب الحوادث على الطرقات. كانت النتيجة هي أن السيارة ارتفعت حرارتها لدرجة غير مسبوقة وبدأ الدخان الأبيض يتصاعد من الراديياتور بلا توقف.. اضطررت للتوقف في شارع ضيق مما أرغم ٣٦٦٣٢٦٢٣ سيارة على التوقف في صف خلفي. لسبب ما راح كل واحد يبرز من سيارته ويشد شعره ويلوح بقبضتيه.. الناس لم تعد مهذبة كما يبدو.

انتهت مرحلة التعلم وبدأت مرحلة التركيز في القيادة.. كلما قابلت صديقًا قال إنه لوح لي أمس لكني لم أكن أرى ولا اسمع لأنني كنت منهمكًا في القيادة. لسبب ما يعتقد هؤلاء أن علي أن أقود السيارة فلا أنظر أمامي أبدًا، بل أتلفت يمينًا ويسارًا بلا انقطاع بحثًا عن أصدقائي المتناثرين على جانبي الطريق. ذات مرة لوح لي أحدهم وهو يقف على جانب الطريق فملت مباشرة لأقف أمامه وأنا ألوح بذراعي.. سمعت صوت حديد يتحطم وصوت فرامل تئن.. نظرت للخلف فوجدت نحو خمس سيارات قد اصطدمت ببعضها والسبب هو أن الأحمق الذي يقود السيارة خلفي توقف فجأة. لماذا يقود الناس السيارات إذا لم يكونوا يجيدون هذا؟.. هكذا أركبت صديقي وانطلقنا تاركين خمسة سائقين يتبادلون السباب واللكمات..

أثنـاء انطـلاقي بالسـيارة سـألت صديقـي عـن سـبب شـجار هـؤلاء، فقـال لي بلهجـة غامضـة: «هنـاك مثـل إنجلـيزي يقـول: أنـت لا تسـتطيع تعليـم كلـب عجـوز حيلـة جديـدة!»

لـم أفهـم علاقـة هـذا بسـؤالي.. لـم أر كلابًـا عجـوزًا في مـكان الحـادث.. يبـدو أن الجميـع قـد فقـدوا عقولهـم.. ألا تـرى هـذا معي ؟

نيولوجيزم

النيولوجيزم أو اللغة الجديدة ظاهرة ضايقت الآباء والمعلمين على مدار التاريخ، وفي كل مرة تنتصر لتولد مصطلحات جديدة تمامًا، ثم يصير مستعملو هذه اللغة الجديدة آباء ومعلمين يصيبهم الجنون عندما يستعمل أبناؤهم لغة جديدة!

في مراهقتي ظهرت في العامية المصرية لفظتان هما (سكّة) بفتح السين- ومعناها (الشيء الرديء عديم القيمة) و(ماشي) ومعناها يشبه OK.. وهما كلمتان معقولتان جدًا لكن أبي كان يوشك على الإصابة بالفالج كلما استعملتهما، وقد قال لي ذات مرة:

-«هنا بيت محترم فإذا أردت استعمال لغتك هذه فلتذهب لبيت آخر!»

لم تكن مدام (عفيفي) تعرف شيئًا من هذا عندما ذهبت للمكتبة المجاورة لدارها وهي شبه منهارة لأن ابنيها المراهقين يتحدثان بلغة هي مزيج من السنسكريتية والفنلندية، وقد فهم الرجل الخبير مشكلتها على الفور وأعطاها قاموسًا صغيرًا كتبه أحد الشباب اسمه (قاموس روش طحن).. وقد تصفحت المرأة صفحاته فأصابها الهلع.. لشد ما تغيرت

لغة الشباب وصارت لهم مصطلحات خاصة بهم لا يمكن فهمها..

استيقظ ابنها الأكبر طالب الثانوي من النوم فقال لها:

-«أنا زهقت من الانتخة العوق دي.. فين الاصطباحة؟»

تصفحت القاموس بسرعة فكادت ترى شريط ترجمة يرتسم على صدره كتب عليه: «لقد سئمت هذا الجلوس الممل في البيت.. أين الإفطار؟». أعدت له الإفطار مسرعة فظهر أخوه طالب الجامعة، وراح يأكل وهو يقول له: «الواد شريف حلق لي امبارح.. الواد ده شحناف وبونتي»

فقال أخوه في لا مبالاة: «كله في الأمبلايظ.. أدي له سلك يا مان..»

أمبلايظ؟.. أية كارثة!.. راحت تتصفح القاموس بسرعة حتى فهمت ما يُقال.. الأول يقول لأخيه إن الولد (شريف) مدع ولا يفهم شيئًا وقد عامله بوقاحة وتجاهله أمس.. فيرد الأخ أنه لا شيء يهم.. يمكنهما تسوية الأمر بمكالمة هاتفية..

انتهى الغداء فنهض الابن الأكبر ليسألها: « إيه النظام.. أبجيني يا ماما»

بمراجعة القاموس عرفت أنه يسألها عن نقود لأنه سيخرج.. وكان القاموس يحتم أن ترد عليه بـ (النظام ستسم).. أي أنها لن تعطيه مليمًا..

بدأت تتعلم هذه المصطلحات ووجدت أن اللعبة مسلية خاصة أنهما يتكلمان غير عالمين أنها تتابع ما يقولان.

كانت جالسة مع الأب على مائدة الغداء، عندما سمعت أحد الولدين يتكلم من غرفة النوم:

- «انت قاطع ودنك ورامیها في حجري!»

فيرد الآخر:

- «وانت معاك فار مولع!»

لم يفهم الأب حرفًا وبدا عليه الرعب، فقالت له في هدوء وهي تتصفح القاموس:

- «الأول يتهم الآخر بأنه يتنصت على كل شيء يقوله، بينما الآخر يتهمه بأنه يدخن لفافة تبغ.. الفأر المولع معناه لفافة تبغ..»

ابتسم الأب وقد استراح لأنه فهم، ثم استوعب معنى هذا الكلام واحتقن وجهه.. لفافة تبغ في البيت!.. كان يتوقع هذا.. ابنه طالب الجامعة يدخن إذن!

قام بالإجراء التربوي العتيد بأن نزع شبشبه وحمله في يده وتوائب نحو غرفة نوم الولدين ليعيد العدالة إلى مجراها، وفتح الباب بقوة..

هنا رأي أول ما رأى فأرًا مشتعلاً يجري فوق الفراش ليتوارى تحته، ثم رأى أذنًا مقطوعة على الأرض!!

في المستشفى رقد الولدان في الفراش غارقين في الضمادات، وقال أكبرهما للأب والأم:

ـ«لقد شرحنا لكما الموقف بدقة لغوية تامة لكنكما لم تفهما!»

قالت الأم:

ـ«مشكلة النيولوجيزم أنك تفترض أن كل كلمة لها معنى آخر بعيد، وهو ما يعني أننا في مأزق حقيقي!»

سوف يستمر هذا المأزق لسنوات عديدة، إلى أن تولد كلمات جديدة، وتصير كلمة (أمبلايظ) كلمة عتيقة جدًا بالنسبة لشباب الغد، ولربما حسبها بعضهم قادمة من معلقات إمرؤ القيس أو عنترة بن شداد.. عندها سوف يفهم الولدان ما نشعر به الآن!

هيافة

لقد كبر أولادي.. ما شاء الله.. هذا يسرني بالتأكيد لكنه يحرمني حقي في ممارسة بعض ما اصطلح الناس على أنه (هيافة).. ولهذا قصة يطول شرحها..

الهيافة هي مصطلح عامي معناه (التفاهة) مع شيء من الهرق وانعدام المسئولية وتضييع الوقت فيما لا طائل من ورائه.. مع لمسة سخف لابد منها طبعًا..

يجب أن أعترف هنا اعترافًا خطيرًا هو إنني أحب قراءة مجلة (ميكي) جدًا.. هذا التدفق الفني الجميل بريشة أعظم فناني العصر مع ذلك العالم الساحر البسيط.. عالم من البط والكلاب والفئران وكل بيت يبنيه صاحبه بنفسه، وأمامه سيارة مضحكة وصندوق بريد خرب، والمليونير العجوز الذي يقضي الوقت في عد المال، والبطة العصبية المغرورة الظريفة معدومة المواهب.. الخ..

أعشق هذا العالم الساحر بشدة، وكنت أتابعه بشغف حتى أنهيت الجامعة، فبدا منظري غريبًا جدًا وأنا أبتاع هذه المجلة من بائع الصحف العجوز المتشكك عم (مأمون)، خاصة وهو لا يكف عن ترديد لفظة (يا دكتور) لا يقصد بها احترامي بل توبيخي طبعًا..

لـو أنـك رأيتـني وأنـا أبتـاع المجلـة وأنظـر حـولي في حـذر، لظننـت أنـني لا أبتـاع مجلـة أطفـال ولكـن جرعـتي اليوميـة مـن الهيرويـين أو الكوكايـين.. قـد أملـك بعـض (الهيافـة) لكـني بالتأكيـد لا أرغـب أن يعـرف النـاس جميعًـا بذلـك. ثمـة حـل معقـول هـو أن أفعـل مـا أريـد ولا أبـالي بالنـاس.. لكـن السـجون عـلى قـدر علمـي تعـج بهـؤلاء الذيـن فعلـوا مـا أرادوا ولـم يبالـوا بأحـد..

هكـذا توقفـت عـن شراء المجلـة لفـترة طويلـة جـدًا إلى أن عرفـت الحـل الـسري : تزوجـت وأنجبـت..!.. الآن صـار عنـدي طفـل جميـل لابـد مـن تثقيفـه وإمتاعـه.. هكـذا عـدت إلى بائـع الصحـف العجـوز العـم مأمـون لأقـف في فخـر وكبريـاء وأقـول :

ـ«هات مجلة ميكي لمحمد ابني..»

فيقول في رضا وطيبة:

ـ«بارك الله لك فيه»

الآن لم أعد مصابًا بالهيافة وإنما أنا مجرد أب مخلص..

أمسـك بالمجلـة في تعـال وكبريـاء ولسـان حـالي يقـول: «كيـف يقـرءون هـذه الأشـياء التافهـة؟».. ثـم أعـود لـداري وأنـا موشـك عـلى التحليـق طربًـا وأتشـمم غـلاف المجلـة الصقيـل عطـر الرائحـة. مـا أجملهـا!.. يجـب أن يعبئـوا رائحـة الأغلفـة هـذه في زجاجـات..

في البيـت تنظـر لي زوجـتي في شـك وهـي مسـتعدة في أيـة لحظة

لا تهمني بالهيافة لو اكتشفت أنني أقرأ هذه المجلة، لذا أضغط على أعصابي حتى المساء ثم أضع الطفل في فراشه وأقرأ له القصص الموجودة فيها تباعًا.. صحيح أنه ينام بعد صفحتين لكني أب متفان أواصل قراءة المجلة له حتى آخر صفحة..

لا يقتصر الأمر كما ترى على قراءة مجلة ميكي. مثلاً لم يعد مما يليق بي أن ألعب مباراة كرة أمام البيت، لكنك تستطيع ذلك لو صرت أبًا حنونًا يلعب مع ابنه.. سني لا تسمح بدخول السينما اسبوعيًا لكني أب طيب مصمم على تسلية ابنه.

أما عن الحلوى والبطاطس المقلية وكل تلك الأشياء لذيذة المذاق الموضوعة في أكياس (تشخشخ)، والتي يصر الكبار على أنها سامة، لكنها لم تكن موجودة في طفولتي وقد صار لذوقها مزاجًا حقيقيًا.. فقط أبتاعها لابني ثم ألتهم منها الكثير لأتأكد من أنها لن تضر صحته..

أنا أب متفان حقًا.. إن آباء كثيرين يحسدونني على سعة الصدر التي أملكها مع ابني..

كبر ابني ولم يعد يهتم بهذه الأشياء، وكلما اقترحت عليه أن يقرأ مجلة ميكي هز كتفيه في اشمئزاز وقال:

«أنا لم أعد طفلاً!»

هكذا وجدت أن الوغد تسبب في حرماني من قراءة المجلة

لمدة عامين، خاصة وأمه تعرف جيدًا أنه لا يحب القراءة أصلاً.. دعك من أنه الطفل الوحيد الذي يمقت الحلوى والبطاطس المقلية وكل تلك الأشياء لذيذة المذاق الموضوعة في أكياس (تشخشخ). لقد دمر حياتي ومستقبلي لذا وجدت أن الحل الوحيد هو أن أنجب ثانية..

الآن تراني أبتاع مجلة ميكي معلنًا أنني أبتاعها من أجل مريم ابنتي.. من ثم يدعو لي عم (مأمون).. أبتاع حمولة كاملة من البطاطس المقلية والحلوى، وأذهب للسينما أسبوعيًا وألعب الكرة حيثما أردت لأنني أفعل هذا لمريم!..

أمس قالت لي مريم إنها لا تحب مجلة ميكي وإنه لا داعي لشرائها. احمرت عيناي غيظًا وزمجرت ثم اتهمتها بالغباء والسطحية والجهل.. سوف تقرئين مجلة ميكي سواء أردت أو لم تريدي.. لست مستعدًا لأن أنجب طفلاً كلما أردت قراءة هذه المجلة، وإلا لوجدت نفسي مثل رمسيس الثاني الذي رزق بـ ٩٩ ابنًا.. لابد أن رمسيس الثاني كان يعاني بعض (الهيافة) ويحب قراءة مجلة أطفال فرعونية تطبع على برديات.

هناك حل ثوري آخر هو أن أجد لنفسي وكرًا سريًا في أحد أزقة المدينة القذرة، حيث أستطيع أن أختلي بنفسي وأمارس الهيافة كما أريد، وهذا الوكر سوف أملؤه بمجلات ميكي وأكياس البطاطس حيث آكل وأقرأ إلى أن أفقد صوابي تمامًا.. لكنه حل خطر لو عرفت به زوجتي.. ألا ترى هذا معي؟

هكذا قالوا

من جديد أعود إلى تلك الرسائل الذكية التي يصلني بعضها عبر البريد الإلكتروني، ومعظم ما يأتي عن هذا الطريق كلام فارغ كما تعرف.. هناك مليون رسالة تعد بخراب بيتك لو لم تمررها لآخرين، ومليون رسالة من أرملة زعيم أفريقي تدعوك لمساعدتها على صرف مبلغ مليار دولار من مصرف في جامايكا.. لكنني وجدت هذه الرسالة الذكية التي تحمل شكل تعليمات يوجهها رجل غربي - قرر أن يكون رجلاً - لزوجته الغالية. زوجتي تساءلت عن سبب اهتمامي برسالة كهذه فقلت لها: «أحب أن أعرف عيوب المرأة الغربية ولماذا فشلت في أن تكون رائعة مثل نسائنا الشرقيات». قبلت زوجتي هذا التفسير بكثير من الشك ، فلو رأت هذا المقال لكانت نهايتي إذن..

التعليمات التي يوجهها الزوج لزوجته تقول:

١. التسوق ليس رياضة.. وليس هناك رجل على استعداد لأن يتعامل معه كرياضة.. أبدًا..

٢. البكاء نوع من الابتزاز..

٣. قولي ما تريدين مباشرة.. ولنكن واضحين: التلميحات الخفيفة لا تجدي.. التلميحات القوية لا تجدي.. التلميحات

الواضحة كالشمس لا تجدي!.. قولي ما تريدين ببساطة!

٤. هاتي مشكلتك لنا فقط لو كنت تريدين حلها.. هذا ما نقدر على عمله.. التعاطف مهمة صديقتك وليس مهمتنا!

٥. الصداع الذي يدوم ١٧ شهرًا مشكلة خطيرة.. فلتذهبي لطبيب بدلاً من الشكوى..

٦. أي شيء قلناه منذ ٦ أشهر غير مقبول استعماله في أية مناقشة.. في الواقع أي تعليق يصير لاغيًا بعد سبعة أيام..

٧. لو كنت تعتقدين أنك بدينة، فأنت كذلك على الأرجح.. لا تسألينا..

٨. لو قلنا شيئًا يمكن تفسيره بطريقتين.. طريقة منهما تجعلك غاضبة أو حزينة، فنحن كنا نقصد المعنى الآخر.

٩. يمكنك أن تطلبي منا عمل الشيء أو تخبرينا بطريقة عمله.. لا يمكنك القيام بالأمرين معًا.. لو كنت تعرفين بالفعل أفضل طريقة لعمل الشيء فلتفعليه بنفسك..

١٠. كلما أمكنك ذلك.. قولي ما تريدين قوله أثناء الفقرة الإعلانية بين برامج التلفزيون..

١١. كل الرجال لا يرون إلا ١٦ لونًا مثلما يحدث في نظام ونـدوز من دون كارت الشاشة. لهذا.. الخوخ فاكهة وليس لونًا.. والقرع العسلي فاكهة وليس لونًا.. نحن لا نعرف معنى كلمة (موف) أو (سيمون)..

١٢. لـو سـألنا (مـا هـي المشـكلة؟) فقلـت (لا شيء) فسـوف تتصرف عـلى أسـاس أنـه لا توجـد مشـكلة. نعـرف أنـك تكذبـين لكـن الأمـر لا يسـتحق وجـع الدمـاغ.

١٣. لـو سـألت سـؤالاً لا تنتظريـن إجابـة عنـه، فلتتوقعـي إجابـة لا تريدين سـماعها.

١٤. عندمـا ننتـوي الذهـاب لمـكان مـا فـأي شيء تلبسـينه مناسـب.. فعـلاً..

١٥. عندك ثياب كافية..

هنـا أتوقـف لأبـدي انبهـاري بـذكاء الفقـرة الثالثـة.. كل النسـاء يعتبرنـك عبقريًـا يجـب ان تفهمهـن بإشـارة أو كلمـة هامسـة.. أعـترف أنـني مصـاب بعمـى تلميحـات كامـل. الفقـرة الرابعـة ممتـازة كذلـك.. هنـاك مـن تشـكو لمجـرد أن تشـكو ومـن دون أن تـترك لـك أي حـل.. الفقـرة السادسـة تثـير ألمًـا خاصًـا في الـنفس عندمـا تقـول لـك المـرأة أنـه في يـوم كـذا عـام ١٩٣٢ الساعة الرابعـة مسـاء قلـت كـذا وكـذا، فكيـف طاوعـك قلبـك عـلى ذلـك؟.. بصعوبـة تتمكـن مـن إقناعهـا أنـك لا تذكـر عنـوان البيـت إلا بصعوبـة. الفقـرة التاسـعة رائعـة.. أرجـو أن تصلـح صبـور الحمـام.. ثـم «لا تفـك المقبـض بهـذه الطريقـة.. ربمـا كان الأفضـل لـو فككتـه هكـذا..».. أمـا عـن الفقـرة رقـم ١١ فهـي مشـكلة الرجـال جميعًـا الذيـن لا يفهمـون أن يكـون هنـاك لـون اسـمه (حلاوسـكي) أو (ألانجـاه)..

وينهي الكاتب الفدائي رسالته لزوجته قائلاً:

- «شكرًا على قراءة هذا.. أعرف أنني سأنام على الأريكة هذه الليلة بدلاً من الفراش ، لكن الرجال لا يبالون بهذا. يعتبرونه نوعًا من نوم المعسكرات..»

هذا رجل شجاع إذن.. أما أنا فلا أملك شجاعته لهذا أنهي هذا المقال بسرعة، وأتوسل لكم ألا تخبروا زوجتي أنني كتبته.. قولوا لها إنني ترجمت كلامًا لم أقتنع به.. قولوا لها إنه مقال مدسوس علي.. قولوا أي شيء عدا الحقيقة!!

الصارخون

أمقت الصوت العالي بشكل لا يوصف. ومن المؤسف أننا محاطون بأشخاص لا يملكون أية موهبة إلا صوتهم العالي. في الحقيقة لا أعتبر الصوت العالي صفة عربية سائدة، فأنا قد تعاملت مع كثير من الأصدقاء الخليجيين والسودانيين، وقد وجدت أكثرهم أميل إلى الهدوء والصوت الخفيض حتى في أشد حالات الانفعال، وهكذا كونت نظريتي الخاصة عن أن الصوت العالي يميز شعوب البحر المتوسط عامة.

المجد للصوت العالي والويل لخفيض الصوت في حوض البحر المتوسط..

صباح اليوم أفقت من نومي في السادسة صباحًا على صوت رجل يصرخ في الشارع، فلما أصخت السمع فهمت أنه رجل يخبر صديقه بسر.. وهو يكرر:

-«هذا الكلام بيننا يا فرج..!.. لا أحد يعرف هذا الذي أقوله»

يبدو أنه يشك في سلوك زوجته، وكرامته تأبى أن يعرف مخلوق بهذا.. أي مخلوق خارج شارعنا طبعًا لأن كل سكان الشارع صحوا من نومهم ليتابعوا هذه القصة المثيرة..

حاولت أن أعود للنوم، لولا أن صحوت على صوت طالبة

تخبر صديقتها وهما ذاهبتان إلى المدرسة بأنها تميل إلى صلاح ولا تشعر بالراحة مع حسن..

-«لا تخبري أحدًا بهذا يا ميمي وإلا جن جنون حسن»

أوشكت على النوم لبعض لحظات ثم صحوت على صوت رجل يخبر صديقه بتفاصيل سرية عن القضية التي سيرفعها على مستأجري العقار الذي يملكه:

-«لو عرفوا بنواياي لاستعدوا لها.. أرجو أن يظل هذا الموضوع بيننا»

فقط يجب أن اخبرك أنني أقيم في الطابق الرابع. فليرحم الله سكان الطابق الأول إذن لأنهم بالتأكيد ماتوا منذ أعوام..

هناك كذلك من يحكي لصاحبه نكتة من إياها، وهو مصر على أن تسمع النكتة كل عذراء وكل طفلة وكل أم في المنطقة.. المشكلة أنه يخفض صوته عند ذروة النكتة فلا تعرف أبدًا لحظة التنوير. هذا يذكرني بالرجل الذي كان يعود لداره ليلاً فيخلع حذاءه الأيمن.. بوم!.. يهب الجيران مذعورين.. ثم يخلع حذاءه الأيسر.. بوم!.. كل ليلة حتى صعد له جاره وتهدده بالويل لو استمر ينزع حذاءه بهذا العنف. عاد الرجل لداره ليلاً فنزع حذاءه الأيمن.. بوم!.. ثم تذكر التهديد الذي تلقاه.. هكذا نزع الحذاء الأيسر بلطف ورقة.. المشكلة أن الجيران في الطابق الأسفل ظلوا ساهرين ينتظرون صوت (بوم) الثاني بلا جدوى!.. هكذا صعد له جاره ليصيح فيه: «انزع الحذاء الأيسر أيها الوغد لينام

الأطفال!»

هناك كذلك هواة الصراخ في الهاتف، وهم كثير في مجتمعنا.. كان مصطفى أمين الصحفي الشهير لا يقدر على التركيز في كتابة مقاله، لأن دار أخبار اليوم كلها كانت ترتج بصراخ أحد الموظفين وهو يتكلم في الهاتف.. سأل مصطفى أمين عن سبب هذا الصراخ فقيل له إن الموظف يكلم أسرته في دمنهور. قال مصطفى أمين في غيظ: «طيب ما يكلمهم بالتليفون يا أخي!!»

هناك نوع آخر من البشر الذي تهمس له بشيء فيكرر ما قلته بصوت عال يوقظ الموتى. تدنو من ذلك الموظف الجالس وسط فتيات وتقول له بصوت خفيض:

-«.....»

فيصيح بصوت يطيرك في الهواء:

-«ماذا؟.. تريد الذهاب لدورة المياه؟.. لماذا؟»

أو تهمس لصديقك وأنت تضع يدك على فمك:

-«.....»

فيصرخ:

-«ماذا؟.. لا تطيق ذلك الرجل الذي يلبس السترة الزرقاء؟.. هل ضايقك في شيء؟»

هناك نوع آخر من البشر يصرخ طيلة الوقت حتى يسبب

لـك الحـرج. أذكـر أنـني كنـت أكلـم أحـد عمـال المستشـفى وكان يشكو صارخًـا لي مـن أعـراض تضايقـه لـدى إفـراغ المثانـة. احتقـن وجهـه واحمـر وتطايـر اللعـاب مـن فمـه وأنـا أحـاول تهدئتـه. عندمـا قابلـت زمـلائي بعـد ذلـك وجدتهـم يسـألونني في حـذر:

ـ«لمـاذا كان ذلـك العامـل يـصرخ فيـك؟.. ولمـاذا وقفـت عاجزًا عـن الـرد أو اتخـاذ إجـراء صـارم؟»

تحـاول إقناعهـم بـأن الأمـر يتعلـق بحمـاس مبالـغ فيـه، فيهـزون رءوسـهم هـزة العليـم بـكل شيء، ويقولـون:

ـ«نعم.. نعم.. بالطبع!»

لا مـكان في هـذا العالـم لخفيـضي الصـوت، ولهـذا أبحث جديًا عـن مـكان يعطـي دورات لتعليـم الـصراخ. ربمـا كان التمثيـل المسرحـي مفيـدًا في هـذا الصـدد.. هـل لديـك اقتراحـات؟

عن الهاموش وحمامات السباحة

يومًا ما - عندما أجمع المادة العلمية الكافية - سوف أكتب دراسة علمية أكاديمية رصينة عن العلاقة بين حفلات الزفاف حول حمامات السباحة وارتفاع معدلات الطلاق. لا أريد أن أكون غراب بين لكني لا أتوقع انسجام الزوجين متى رأيت أن الزفاف يُعقد حول حمام سباحة في ناد. سوف يكون بحثًا علميًا مهمًا يبلغ عدد صفحاته نحو مائتي صفحة من القطع المتوسط، وسوف تفرد له مجلة لانست العالمية عددًا كاملاً..

لكن حتى تأتي تلك اللحظة سأكتفي بسرد القصة التي جعلتني أتنبه لهذا..

رانية كانت فاتنة كليتنا. أعتقد أن كل طالب في الكلية قد حلم بأن يعطيها زهرة.. أما الطلاب الأكثر وقاحة وثراء فكانوا يحلمون بأن تعطيهم هي زهرة..

رانية كانت فاتنة كليتنا وكانت كذلك صديقتي.. السبب كما قالت هو إنني الإنسان المحترم الوحيد الذي لم يسبل عليه ويعلن أنه يهيم بها. بهذه العبارة وضعت سدادة من الفلين على فمي كأنني زجاجة زيت تموين، ولم يعد واردًا بأي شكل أن أظهر لها ما أخفيه..

في السنة النهائية تقدم لرانية عريس ثري أمضى معظم حياته في الخارج، وقد قبلت الزواج منه لأنها بالطبع لن تقبل بأي واحد من هؤلاء المتشردين زملائها في الكلية. ودعتني مع مجموعة من الأصدقاء فتيات وفتيان إلى الزفاف..

ذهبنا في الموعد المقرر إلى النادي لنجد مشهدًا من ألف ليلة وليلة.. حمام السباحة يسبح في الأضواء الملونة، على حين تطفو فوق الماء بالونات وورود.. وهناك فتيات صغيرات كالفراشات يتواثبن هنا وهناك بينما الفرقة تعزف لحنًا راقيًا..

المشكلة الوحيدة هي الهاموش، والهاموش هو تلك الحشرة الدقيقة المزعجة التي تطير حولك وتلدغ أنفك فتعطس، أو تلدغ عينك فتدمع، أو تلدغ جلدك فتهرش.. لابد من الكثير من الهاموش مع مياه الحمام والإضاءة الليلية..

كان العريس كما توقعته.. هو يفوقها سنًا بعشر سنوات على الأقل، ووغد متشكك تعلم أن كل الناس أوغاد مثله لابد من التعامل معهم بحذر. وعندما رآنا نجلس قرب الكوشة راح ينظر لنا في كراهية.. زملاء زوجته في الكلية الذين يماثلونها عمرًا.. هؤلاء الأوغاد.. ليس منهم واحد بالطبع إلا وقد حلم بأنه تزوجها هو أو ربما حلم بما هو أسوأ..

راح ينظر لنا في مقت شديد ولسان حاله يقول: انتهت اللعبة يا أنذال.. هذه الحسناء لي أنا وحدي وعليكم أن

عـودوا لبيوتكـم لتعبثـوا في أنوفكـم وتنامـوا مبكـرًا..

أخيرًا جاء وقت الانصراف، وهكذا مشينا في صف لنصافح الزوجين مهنئين.. العريس يصافح كل واحد منا بينما رانية تقدمه له.. هذا ماجد وهو صديق مخلص.. تشرفنا يا سيد ماجد.. وهذا عصام وهو صديق نبيل.. تشرفنا يا سيد عصام..

العريس يحتقن ووجهه يحمر ويحمر.. كل هؤلاء يحبونها؟..

أخيرًا اقترب دوري فضممت سترتي وتوجهت لأصافحه، هنا احترقت عيني تلك اللدغة من هاموشة وقحة متحمسة..

أخرجت المنديل ومسحت عيني، لكنها ظلت تدمع بلا انقطاع وأدركت أنها بالتأكيد حمراء كالطماطم. على هذه الصورة دنوت لأصافح العريس.. عين حمراء ودموع تسيل بلا انقطاع ومنديل في يدي.. دعك من تلك الرعشة العصبية التي أصابت زاوية فمي من الألم..

-«أحمد.. صديق نادر..»

مددت يدي أصافح الرجل وأنا انشق بأنفي لأمنع المخاط من أن يسيل. رأيته يصافحني قد ازدحمت الشكوك على وجهه حتى لم يبق موضع لقدم. صديق زوجته قبل الزواج يأتي ليهنئها في حفل الزفاف دامع العينين متقرح الجفنين.. ما معنى هذا؟

لابد أنه تذكر (ورد) زوج ليلى العامرية الذي لم يجد

حلاً لحب زوجته لقيس سوى أن يقول للأخير: «أنت حبيب القلب والزوج أنا..» ، ولابد أنه توقع أن اصعد إلى المسرح لأغني: «حبيبها لست وحدك.. حبيبها أنا قبلك.. وربما جئت بعدك.. وربما كنت مثلك!»

هكذا ظل يراقبني في شك مجنون ووجهه أحمر كالطماطم المغتاظة، وظلت عيناه تتبعانني حتى وأنا أبتعد.. على باب النادي نظرت فوجدته ما زال ينظر لي..

حسن.. أنت تعرف ما حدث بعد شهرين.. لقد طلقت رانية.. لست مغرورًا فأزعم أنني كنت السبب الوحيد لكن لا تنكر أنني كنت ما يمكن تسميته (مسمار في نعش العلاقة الزوجية)..

هل السبب أنه مجنون؟.. أم السبب هي تلك الهاموشة اللعينة؟.. أم السبب هو حمام السباحة؟.. لم أكون رأيًا عامًا بعد ، لكني أعدك بتقديم هذا الرأي ضمن الدراسة الأكاديمية المعقدة التي أنتوي كتابتها يومًا ما عن علاقة حمامات السباحة بالطلاق.

ألغاز طبية

قبل أن ألتحق بكلية الطب كان هناك لغز يؤرقني في الأفلام العربية التي أراها: فما إن تشعر المرأة بآلام الولادة حتى تقول إحدى السيدات العجائز لصاحبتها أو يقول الطبيب:

- «قومي بتسخين الماء»

فتهرع المرأة إلى المطبخ لتغلي إناء كبيرًا تحمله في حذر إلى غرفة الوالدة وهنا ينغلق الباب في وجهنا فلا نعرف ما حدث بعد ذلك..

كان عندي من الشجاعة الأدبية ما سمح لي بأن اسأل أمي عن استخدام الماء الساخن في الولادة، فقالت في غموض:

- «هذه أمور نسائية لا تسأل عنها..»

ثم كبرت نوعًا فوجدت كتابًا كتبه طبيب أمريكي يبسط العلوم الطبية للقارئ، واسم الكتاب هو (حتى يحضر الطبيب). يقول المؤلف في باب الولادة: «لا داعي لعادة تسخين الماء لأن هذا قد يسبب حروقًا خطيرة لك أو الأم أو الجنين»

هذا ما قاله ولم يشرح استخدام هذا الماء.. أقصد الاستخدام الخطأ الذي ينبغي أن نتوقف عنه. إذن الأمريكان

يسخنون الماء كذلك ولسبب مجهول..

دخلت كلية الطب إذن، وانتظرت في صبر حتى درسنا الولادة.. كل شيء عن الولادة والأغشية التي تنفجر ودوران الرأس و.. و.. كل شيء.. وقد قمت بتوليد نساء كثيرات في بداية حياتي قبل أن أتخصص في الأمراض الباطنة. لم يحدث قط أن احتجت للماء الساخن، ولم أر أي شخص يحتاج للماء الساخن أمامي..

لكنني فطنت بعد أن ابتعدت عن صرخات غرفة التوليد بعشر سنوات أنني لم أتلق الإجابة قط.. لم أعرف ما يفعلونه بالماء الساخن في الأفلام.

هكذا انتحيت بأحد كبار أطباء التوليد جانبًا وسألته عن سر الماء الساخن، فاتسعت عيناه في ذهول وظل ينظر لي عاجزًا عن الكلام بضع ثوان ثم قال:

-«حقًا لا تعرف؟.. إنسان مثقف مثلك، أو هذا ما كنت أحسبه؟.. أنت تمزح طبعًا.. لا يوجد تفسير عندي سوى أنك تمزح..»

هنا انفجرت ضاحكًا وقلت له إنني كنت أمزح فعلاً.. عليه ألا يكون ساذجًا لهذا الحد.. هناك مشكلة مزمنة عندي هي أنني لا أبدو كمن يمزح عندما أمزح. قال لي بلهجة جدية:

-«أنصحك ألا تسأل أسئلة بلهاء كهذه وإلا ظنوا بعقلك الظنون!»

هكذا قضي الأمر وصار علي أن أبقى جاهلاً للأبد ما دمت لا أملك شجاعة أن أبدو جاهلاً لنصف دقيقة، وعلى كل حال قد كونت نظريتي الخاصة عن الموضوع.. غالبًا يستعمل الماء الساخن لقتل الوليد إذا كان قبيحًا، أو هم يحرقون الأم به كي لا تشعر بألم الولادة، وربما هم يفعلون هذا لاستفزازي فقط.. أي أنهم يسخنون الماء في كل الولادات كي أجن أنا..

مشكلة أخرى حيرتني في كلية الطب هي (برد المعدة).. هناك ذلك الرجل الذي يشعر بتوعك وغثيان فيقول له الطبيب إنه مصاب ببرد في المعدة. درست الجهاز الهضمي والحميات فلم أقرأ قط تعبير (برد في المعدة) هذا.. ولماذا يفضل البرد المعدة على أعضاء أخرى؟.. هذه ألغاز كونية لا إجابة عنها وبالطبع كان رد أي طبيب سألته هو:

- «هأ.. هأ.. أنت تمزح طبعًا..»

هكذا خرست تمامًا.. وهأنذا أقترب من نهاية حياتي دون أن أعرف معنى برد في المعدة هذا.. من الواضح أنني فشلت.. أولها حزينًا كاسف البال..

كل هذا محتمل، لكن ما معنى (كسل في الكبد)؟.. هناك نزيف كبد.. فشل كبدي حاد ومزمن.. التهاب كبدي.. دهون كبدية.. الخ.. لكن ما معنى (كبد كسول)؟.. هل تتحسن حالته ببعض التدليك أو التدفئة؟.. هل يفيده شرب المنبهات كالشاي والقهوة؟

بالطبـع لا أعـرف.. دكتـوراه في أمـراض الكبـد ولـم أعـرف بعـد.. والأدهـى أن كل النـاس يعرفـون مـا عـداي..

مـاذا؟.. هـذه زوجـتي تطلـب مـني أن آتي معهـا فـورًا لأن أختهـا قـد داهمتهـا آلام المخـاض.. نهـرع إلى بيـت أختهـا لنـدرك أن الوقـت لـن يتسـع لنقلهـا إلى المستشـفى.. يبـدو أنهـا سـتضع وليدهـا عـلى الفـراش. هنـا أشـمر ذراعـي وأقـول لزوجـتي في حـزم:

ـ«قومي بتسخين بعض الماء!»

تنظر لي في حيرة ثم تقول:

ـ«والسبب؟»

فأضرب كفًا بكف وأقول في عصبية:

ـ«لا تسـألي حـتى لا يظـن أحدهـم بعقلـك الظنـون.. امـرأة في هـذه السـن ولا تعـرف أهميـة المـاء السـاخن في الـولادة؟.. هيـا.. لا تنظـري لي بهـذه الطريقـة كأنـك مصابـة بكسـل في الكبـد وبـرد في المعـدة.. قومـي بتسـخين المـاء ولربمـا أشرح لـك مـا اسـتغلق عليـك مـن أسرار فيمـا بعـد»

لبيب يعرف كل شيء

ليس الموت من الأمور التي يمكن أن تجد فيها دعابة ما، ولو وجدت فأنت على الأرجح عبقري من عينة مارك توين وأوسكار وايلد أو أنت مجنون. لكن ما يثير الضحك فعلاً هو التصرفات السخيفة للناس في تلك المواقف.

في إحدى مقالات أحمد رجب الساخرة حكى عن ذلك الرجل الذي جلس جواره في سرادق عزاء، وراح يحكي له قصة تخريفية لا أول لها ولا آخر عن علاقته بالملك فؤاد ملك مصر الأسبق، وكيف أن الملكة كانت تحب الرجل راوي القصة بشدة، لهذا فتح بابه ذات مرة ليجد الملك فؤاد واقفًا حافي القدمين، وهو يحمل رغيفين وقرطاسًا به طعمية وحزمة فجل، ويقول له: «جئت آكل معك عيشًا وملحًا حتى لا تخونني!»

عند هذا الحد من القصة انتهت قدرة أحمد رجب على التحمل وانفجر ضاحكًا في سرادق العزاء الوقور، ليطرد شر طردة. هذه القصة حكاها أحمد رجب وانتهى الأمر، لكنها ظلت كالهاجس يطاردني في كل عزاء أحضره.. إنه وسواس قهري رهيب يجعلني أتخيل الملك فؤاد حافيًا وهو يحمل قرطاسًا مليئًا بالطعمية.. هكذا أضغط على أسناني وأبتلع ريقي.. عالمًا أنني في الحقيقة أنقذ حياتي نفسها.. لو ضحكت

بصوت عال لانتهى أمري..

ليس هذا فقط ما يضحكني.. هناك اللحظات الأولى بعد الوفاة عندما يتصايح الناس: ـ لا تفعلوا شيئًا.. إن (لبيب) قادم..

(لبيب) هذا قد يكون مسلمًا أو مسيحيًا.. المهم أنه رجل في الخمسين ، وهو من الطراز الذي يعرف ما ينبغي عمله. دعك من أنه يستمتع بهذه الأمور بشكل واضح. سرعان ما يصل وقد بدا عليه الحزم وقلب شفته السفلى في قرف.. لسان حاله يقول: انتهى المزاح.. لقد جاء الخبير.

يجلس في مكان الصدارة ويصدر تعليماته في حزم:

ـ«لا نريد تخبطًا.. سوف يتم الغسل هنا، وبعد هذا ننقل الجثمان إلى مسجد (السرجاني) حيث تتم الصلاة عليه.. صه!.. لا أريد معارضة وتخبط رأي.. العزاء سيكون في قاعة المناسبات بعد صلاة العشاء.. ش ش ش!.. أعطوني ورقة وقلمًا!»

هكذا يصدر الأمر وعيناه تطلقان الشرر، هكذا يهرع الجالسون مرتجفين ليحضروا له ما طلب.. يمسك بالقلم ويبدأ الكتابة في فخر:

ـ«بقلوب يملؤها الأسى ننعي فقيد عائلة (الشماشرجي) المهندس (الشماشرجي عبده الشماشرجي) المدير السابق لشركة الشماشرجي ووالد كل من.. ونسيب أسرة وأسرة.. الخ..»

ويملأ النعي في كبرياء وفخر.. أسعد لحظة في حياته هي اللحظة التي يموت فيها شخص يعرفه ليسعد باستعراض كل الأسماء المهمة التي تضمها أسرته.. يوشك أن يبكي تأثرًا عندما يكتب :«ونسيب اللواء محمد الشماشرجي بجهاز أمن الدولة، والعميد محمد الشماشرجي برئاسة الجمهورية.. و..»

يسمع صوت بكاء من ابن الفقيد فتتسع عيناه وينظر له نظرة مرعبة:

ـ«شريف!.. تماسك وإلا..»

ثم يواصل اللحظات الممتعة حتى يوشك على التأوه من فرط النشوة وهو يكتب أسماء كل السادة الذين تضمهم القائمة، ثم يناول الورقة لأحدهم ويأمره في حزم أن يحملها إلى الصحف.

ـ«لو قالوا إنه لا مكان لهذا النعي في صحف الغد، فلتقل لهم إن العميد محمد الشماشرجي برئاسة الجمهورية يأمرهم بإفساح مكان له.. هه؟.. أنا لن افعل كل شيء بنفسي.. أنتم مجرد أطفال لا تستطيعون عمل شيء.. اخرس يا شريف!..»

ثم تشيع الجنازة التي يتقدمها لبيب وهو يضع نظارة سوداء وقد رسم التأثر على وجهه، لكنه لا ينسى توبيخ حملة النعش.. يغيبون الجثة في القبر، ويقف ابن الفقيد وهو متماسك راض بقضاء الله راغبًا في قراءة بعض آيات القرآن على قبر أبيه، هنا تحدث الظاهرة التي لا أفهمها وهي أن كل واحد من الواقفين يشخط في الفتى ويجرونه جرًا

بعيدًا عن القبر بدعوى حمايته من الانهيار.. الفتى يقسم بالله العظيم أنه متماسك وأنه يريد أن يترك وشأنه لحظة، لكن (لبيب) لا يرحمه.. رأيت أبناء متوفين يتلقون علقة ساخنة على قبور آبائهم.. الكل يجرهم.. الكل يدفعهم.. الكل يلكمهم في أكتافهم مع ترديد : يالله.. يا لله!.. هيا!.. انتهينا..

وسرعان ما يجد ابن الفقيد نفسه خارج المدافن كلها مبعثر الثياب مغبرًا، ولربما نزف الدم من أنفه من كثرة ما تلقى من لكمات.. ثم يظهر الأخ لبيب من مكان ما ليشخط فيه وهو يرمقه بنظرة نارية:

-«لعب العيال هذا!.. ألا تتماسك وتكون رجلاً؟»

نعم.. لا أستطيع في أحيان كثيرة أن أشهد طقوس الدفن والعزاء من دون أن أضغط على أسناني بقوة كي لا أضحك.. لو ضحكت لكانت نهايتي خاصة لو كان الأخ (لبيب) قريبًا..

صينية الآلام

هنـاك أشـياء معـدودة أمقتهـا بجنـون؛ منهـا القسـوة والتعصـب والفقـر المـذل و.. صينيـة البطاطـس..

لسبب مـا لا أشـعر أبـدًا بأنهـا نـوع محـترم مـن الخـضروات، ولا أشـعر بذلـك الامـتزاج المقـدس بـين الطماطـم والبصـل والبطاطـس لصنـع شيء واحـد، إنمـا هـي قطـع مـن خـضروات متنافـرة.

بالطبـع ليـس مـا يـروق لي ومـا لا يـروق لي موضوعًـا مناسـبًا لمقـال حـتى إن كان محببًـا لي شـخصيًا، لكـني أحـاول أن ألقـي الضـوء عـلى حيـاة العـزاب الـتي تلعـب فيهـا صينيـة البطاطـس دورًا لا بـأس بـه.

يعـود الأعـزب مـن عملـه منهـكًا غارقًـا في العـرق، فيـنزع ثيابـه بسرعـة، ويهـرع بثيابـه الداخليـة إلى المطبـخ ليقطـع بعـض حبـات البطاطـس وبعـض شرائـح الطماطـم والبصـل في صينيـة، ثـم يمـزق الدجاجـة الـتي ابتاعهـا أمـس إلى أربعـة أشـلاء يدفنهـا تحـت الخليـط ويـزج بالصينيـة في الفـرن خـلال دقائـق، ثـم يتفـرغ لارتـداء ثيـاب البيـت والوضـوء والصـلاة إذا كان مـن المصلـين، أو العبـث بأصابـع قدميـه إذا لـم يكـن منهـم، ثـم ينتقـل إلى الجـزء الثـاني مـن برنامـج عملـه؛ وهـو وضـع ثيابـه بمـا

في جيوبها من أوراق ونقود في الغسالة وتركها تدور إلى الأبد..

بهذا يمكنه أن يفخر أنه يجيد الطهي ويجيد الغسيل معًا..

فما أن ينتهي حتى يكون الغداء قد نضج بدوره فيجلس وحيدًا أمام التلفزيون يلتهم طعامه.

في فترة من حياتي كنت أعزب أعيش وحدي، وقد جربت الطهي مرة أو مرتين ، فكنت أتشمم الطعام بعد أن ينضج.. ومن دون تردد أحمل الإناء لأسكبه في سلة المهملات ثم أنزل قاصدًا أقرب مطعم لي..

أدمنت أكل المطاعم، وكنت أجعل المطعم يحضر لي طعامي أحيانًا، فأنعم بالجلوس أمام التلفزيون وأنا أفتح الكيس لتنبعث رائحة الدجاج المشوي الشهية ورائحة الأرز الأشهى.. لحظات نورانية أنتظرها طيلة اليوم في صبر.. ثم يأتي النوم.. النوم الطويل الجميل بعد الأكل والذي يمكن بسهولة أن يتحول إلى موت لولا إرادة الحياة لدي.. إراده الحياة وموعد الدوام الليلي طبعًا..

هكذا كنت راضيًا بحياتي سعيدًا إلى أن اكتشف العزاب الذين يعملون معي في ذات المكان إنني آكل وحدي..

-«هذا لن يكون.. عيب!»

قلت لهم إنني سعيد بحالي، لكنهم صمموا على أني معذب تعس ويجب أن أترك لهم نفسي..

قلت لهم إننا جميعًا في الهواء سواء.. ليس بيننا من ينعم بطهي زوجته فلم لا يتركونني وشأني؟.. لا وحياتك..

هكذا وجدت نفسي مدعوًا يوميًا تقريبًا إلى دار واحد منهم بفسم أغلظ الإيمان أنه لن يتركني.. أحدهم حلف على امرأته بالطلاق ثلاثًا برغم أنه لم يتزوج بعد، لكني بالطبع ذهبت لأنني أخشى خراب البيوت..

هكذا أجلس مع هؤلاء الكرماء نتبادل النكات ونغتاب الناس ونشتم من ليس بيننا، إلى أن يظهر صاحب الدعوة حاملاً الكنز الذي سيحميني من الموت جوعًا.. صينية البطاطس..

-«إنها سهلة لذيذة كما تعلم!»

أكظم غيظي وآكل.. طبعًا لا ينتهي الأمر هنا.. فلابد من جلسة تطول بعد الغداء.. عيناي مثقلتان ورغبة ملحة للنوم تقتلني لكني أتماسك، وفي النهاية يطلقون سراحي فأعود لداري لأكتشف ان موعد الدوام الليلي بعد نصف ساعة وأنا لم أنم!

في اليوم التالي يظهر صديق أعزب آخر.. إن شاء الله أنت ضيفي اليوم.. أحاول التملص لكن وجهه يحمر ويتصاعد البخار من منخريه.. أنا لست أقل من فلان وأنت قبلت دعوة فلان أمس.. هذه إهانة..

هكذا أجد نفسي جالسًا مع شلة العزاب نتبادل النكات ونغتاب الناس ونشتم من ليس بيننا، إلى أن يصل صاحب

الـدار حامـلاً مفاجأتـه السـاخنة.. صينيـة البطاطـس طبعًـا!

ـ«إنها سهلة لذيذة كما تعلم!»

ويتكـرر كل شيء.. صرت أكـره صينيـة البطاطـس.. أراهـا في كوابيـسي.. أتخيـل نفـسي دجاجـة ممزقـة وسـط البطاطـس توضـع في فـرن.. صـار الأكل في المطعـم حلمًـا أتمـنى أن أعيشـه مـرة واحـدة قبـل المـوت..

هكـذا اسـتمر الحـال إلى أن جـاء الفـرج عـلى يـد واحـد مـن زملائنـا.. هـو رجـل مـتزوج ظريـف أصر عـلى أن يدعونـا نحـن العـزاب لـداره..

ـ«أنتـم تبـدون كالأشـباح.. لابـد مـن أكلـة محترمـة دسـمة مـن يـد زوجـتي تعيدكـم لعالـم البـشر»

قـال لي رفـاقي وهـم يغمـزون إن دعـوة هـذا الزميـل لا تُرفـض لأنـه مشـهور بالكـرم. سـوف نـأكل أكلاً يغنينـا عـن صينيـة البطاطـس عـدة أيـام...

تفاءلـت خـيرًا وذهبـت للدعـوة.. طبعًـا لا داعـي لأن أخـبرك أن زوجتـه اختـارت لنـا صينيـة البطاطـس في ذلـك اليـوم بالـذات، فهـي وجبـة سـهلة لذيـذة كمـا تعلـم!.

بعـد الغـداء جلـس جـواري وهمـس لي أنـه يثـق بي كثيرًا ويـراني رزينًـا مهذبًـا.. إنـه يرشـح لي أخـت زوجتـه عروسًـا لتخرجـني مـن حيـاة العـزاب الكريهـة هـذه. لكـن هـل عنـدي مواصفـات معينة أتمناهـا في شريكـة حيـاتي؟

قلت في بساطة:

ـ«لا مواصفـات عـلى الإطـلاق.. فقـط أريـد زوجـة صالحـة ترعـى بيتهـا و.. لا تجيـد عمـل صينيـة البطاطـس!»

فيديو كليب يا باشا

لأسباب تتعلق بالشعر الأبيض والضمير وادعاء الوقار والواجب التربوي وكراهية الابتذال والاشمئزاز من زيادة الأمور عن حدها والشعور بالتميز.. لأسباب تتعلق بهذا كله لست من هواة مشاهدة قنوات الفيديو كليب التي انتشرت كالوباء في كل مكان. لحسن الحظ ما زال أطفالي صغيري السن جدًا إلى الحد الذي يجعل الطفلة تؤمن أن بوكاهانتاس أجمل بكثير من كاظم الساهر، والطفل يؤمن بأن منظر رجل يمزقه (فان ديزل) بالطلقات أجمل بمراحل من هيفاء وهبي..

لكن الوضع سوف يتغير.. هذا مجرد تأجيل للمعركة وليس إلغاء لها..

فقط يمكن أن نرى لمحة عابرة من هذه البرامج أثناء رحلة (الريموت) التي تقصد مرفأ الأمان في (سبيس تونز).. هكذا استطعت أن أكون فكرة عابرة عما يحدث هناك، وتذكرت كاريكاتورًا عبقريًا للفنان (شريف عرفة) نرى فيه ضابطًا في شرطة الآداب يقبض على رجل وامرأة عاريين تحت الأغطية، فيقول له الرجل في رعب: «ليس بيت دعارة والله العظيم يا باشا.. نحن فقط نصور الفيديو الكليب الجديد!». ليس هذا الكاريكاتور مبالغًا جدًا بل هو أقرب لما أراه من لمحات..

أفضل دومًا تمضية الوقت الإجباري بانتظار شيء ما جالسًا في كافتيريا، وهناك تكتشف وسط الشباب الجالسين أنك لو طلبت رؤية قناة الجزيرة مثلاً لمزقوك إربًا.. هكذا تجد نفسك مضطرًا لمشاهدة هذه الكليبات. في البداية كان أسوأ شيء عرفناه أو سمعنا عنه هو تلك المطربة السمراء الشابة التي تركض بثوب الرقص في الطريق العام.. ليكن.. من حقها أن تجن قليلاً.. بعدها رأيناها تتلوى على دراجة ثابتة والكاميرا موضوعة في زاوية غريبة جديرة بمخرج طليعي مثل (جان لوك جودار) أو (ليلوش). من الغريب أنني سمعت هذه الأغنية من المذياع قبل أن أراها وبدت لي خفيفة الدم مرحة، وصوت الفتاة يعبر فعلاً عن المراهقة المصرية الحالمة، ثم رأيت الأغنية فقلت: «أعوذ بالله.. ليس لهذه الأغنية أية علاقة بأي شيء سوى حانات القراصنة في جزر الأنتيل». وكففت عن دندنة الأغنية لأنني خشيت أن يظنوا بي الظنون.. الخلاصة أن الكليب أساء للمطربة وأحسن للأنثى..

كلما ظننت أننا بلغنا القمة في الابتذال ظهرت قمة أخرى حتى أنك لتحني رأسك انبهارًا بعبقرية هؤلاء القوم. المطربة التي تغني لحصان وهي... ما علينا.. هناك مطربة تغني وهي تتلوى في الفراش مع حبيبها.. هناك وهناك...

ليس هذا كل شيء.. هناك جو عام من الافتعال والسخف واستنساخ التجارب الغربية. لا أذكر كم فيديو كليب رأيت فيه قتلة من رجال المافيا يحملون بنادقهم (التومي) في علب كمان ويمشون بأحذيتهم البيض وقبعاتهم قاصدين ملهى

ليليًا ليقتلوا من فيه. كل الكليبات فيها سيارات فاخرة فارهة لتسابق كأنه لا يوجد عربي واحد يمشي على قدميه أو يركب سيارة عتيقة.. بيوت عملاقة وتدريب في قاعة جمنزيوم وأشياء غريبة جدًا..

في أسفل الشاشة ترى المبرر الاقتصادي الوحيد لصنع هذا الهراء: شريط رسائل الجوال الذي يزحف كثعبان طويل تحت الشاشة، وترى رسائل من نوعية: «منه لله الريري اللي كبرك علينا». الريري لمن لا يعرف هو غذاء رُضِّع شهير جدًا في مصر ومن الواضح أنه جعل الفتاة تكبر بسرعة فصارت لا تبالي بحبيبها!.. «حزينة موت من اسكندرية.. ممكن أكلم الأخ حساس قوي؟». يصعب تخيل أن الأخت (حزينة موت) والأخ (حساس قوي) جالسان أمام الشاشة يكتبان هذا الكلام الفارغ، وبرغم هذا واحد منهما حزين والآخر حساس.

شلال من الدراهم والجنيهات والريالات والدولارات ينهمر على صاحب القناة حتى إنه ليوشك على الاختناق من فرط المال المتساقط عليه..

بالطبع لا يمكن أن تجذب كل هؤلاء من دون دراجة ثابتة وحصان.. ومن المستحيل كذلك أن تتذكر إن كانت الأغنية لها كلمات أم لا.. لها لحن أم لا.. فقط أنت تتذكر أنه كان فيها فتيات.

ـ«أسألك يا أستاذ..»

أجفل وأنظر في رعب للنادل الذي أحضر القهوة ووقف جواري ربع ساعة ينتظر أن أفيق ليسألني إن كنت أريد (نارجيلة) أم لا.. ابتسامة ساخرة خبيثة جدًا على شفتيه فأقول في ارتباك:

ـ«أحاول فقط أن أعرف الخطر.. الخطر الذي.. لا عليك.. لا أريد نارجيلة»

ربما ليس الأمر بهذا السوء على كل حال، فأنا لا أنكر إنني بدأت أشعر باشمئزاز من كل هذا الابتذال لكرامة المرأة. ربما تكون الفلسفة الهندية القديمة صالحة هنا، وهي أن الاستغراق في الآثام قد يؤدي إلى التطهر والقرف الأبدي منها. لكن إلى أن ينجح هذا مع أولادي فإن علي أن أراجع فصل (تشفير القنوات) في كتيب تعليمات جهاز الديش..

حبة بازلاء

عندما قال لي صاحبي إنه سيتزوج، تذكرت القصة القديمة العبقرية لـ (هانس كرستيان أندرسن) عن الأمير الذي يبحث عن أميرة حقيقية ليتزوجها.. هنا ظهرت - في ظروف معقدة ما - أميرة ضلت الطريق وطلبت البيات في قصره. لا يأخذنك الخيال بعيدًا لأن هذه قصة أطفال.. كل ما حدث هو أن الملكة الأم قررت عقد اختبار صغير لهذه الأميرة لمعرفة إن كانت أميرة حقًا.. وضعت حبة بازلاء على حشية فراش ثم وضعت فوقها أربع حشايا كاملة، وطلبت من الأميرة قضاء الليل في هذا الفراش.. في الصباح بدت الأميرة مرهقة لأن شيئًا صلبًا في الفراش ظل يؤلم ظهرها طيلة الليل!.. هنا هتفت الملكة في حماس: «تزوجها يا بني فهي أميرة حقيقية!.. فقط الأميرة سليلة الملوك هي التي يمكن أن تشعر بحبة بازلاء تحت أربع حشايا..!»

لقد رأيت الفتاة التي راقت لصاحبي، وبدت جميلة رقيقة لكني شعرت نوعًا ما من التصنع وادعاء الرقي في سلوكها.. إنها لا تظهر ما تبطن تمامًا.. إن للتصنع حدودًا ولابد من علامة هنا أو هنا تكشف لك حقيقتها..

هناك نصيحة يسدونها للراغبين في الزواج وأجدها حكيمة جدًا: أعط الفتاة قطعة من اللادن ودعها تمضغها.. راقبها

بحذر.. سوف تتماسك الفتاة بضع دقائق وتمضغ برقة، ثم تبدأ الفضائح.. سوف تبدأ الانفجارات.. طراك..!.. كراك!.. طراق!.. وتلوي فمها في ميوعة ويتساقط اللعاب من شفتيها الغليظتين.. باختصار سوف تنسى كل الأقنعة الاجتماعية التي وضعتها.. إن اللادن له قوة كاسحة ولا تستطيع أية امرأة أن تقاومه ما لم تكن أميرة حقًا..

طريقة الأكل كذلك لا تفشل: هناك مطربة مصرية اشتهرت بالرقة، وكان أحد الشعراء يهيم بها حبًا.. يهيم بها حتى رآها مصادفة في القناطر الخيرية في شم النسيم.. رآها تلتهم الفسيخ في جشع وتلعق أصابعها.. ثم تهشم البصل وتزدرده كأنها أحد المعلمين في وكالة البلح.. وتقذف في جوفها بأربعة أو خمسة أرغفة. سقطت تمامًا من نظره وشفي من عشقه المجنون والحمد لله..

ذات مرة كنت أتصل بشركة طيران أؤكد حجز رحلة، فردت علي فتاة تتكلم بأرستقراطية وخنافة من طرف أنفها.. تقول لي:

ـ«بالتأكيد يا فندم.. لا لزوم للكونفيرميشن لأن البوكنج موجود هنا.. الفاوشر معك ويمكنك أن تقوم بعمل كانسلينج في أية لحظة.. بليز دو.. هانج أون..»

كانت تجد صعوبة بالغة في العثور على أية كلمة عربية مناسبة..

وبدأت تمليني رقم الرحلة، وفجأة حدث خلل في الكمبيوتر

عندها، فراحت تضرب المفاتيح في عصبية.. ثم دوى صوتها الغليظ الحلقي كأنها تتشاجر في سوق الخضار:

-«يا دي السخماط!!»

للحظة خيل لي أنها تستعمل لفظة ألمانية أو هولندية لا أعرفها، ثم فطنت أنها تتكلم بالعربية العامية جدًا جدًا.. أنا لست من طبقة مرفهة أو ثرية ، وقد تعاملت بحكم عملي مع طبقات فقيرة جدًا في أسفل السلم الاجتماعي، لكن دعني أؤكد لك أنني لم أسمع (يا دي السخماط) هذه من أي شخص قبل هذه اللحظة!!.. طبعًا يمكن استنتاج أنها تقول (يا للكارثة!) بطريقتها الراقية الخاصة..

في اللحظة التالية ثابت إلى رشدها فعادت تقول:

-«سوري يا فندم.. الشاشة فروزن حاليًا.. لو أنك كولد باك خلال ساعة فلربما.. احم.. شكرًا لاتصالك»

وضعت السماعة وأنا أموت ضحكًا، وقررت أنني لن أتزوج هذه الفتاة بالذات لو قررت أن أتزوج..

صارحت صديقي بهواجسي هذه ، فقال لي في غيظ:

-«وماذا أفعل؟»

قلت له في وقار:

-«إما أن تقنع فتاتك بالنوم على حبة بازلاء تحت أربع حشايا، وإما أن تعطيها قطعة لادن.. أو تراقب رد فعلها لو

حـدث خلـل في الكمبيوتـر..»

لـم يبـد لـه أي حـل مقنعًـا.. حـتى فكـرة الـلادن سـتبدو غريبـة جـدًا عندمـا يعطيهـا إياهـا ويراقبهـا في حـذر كأنـه يطعـم فـرس النهـر في حديقـة الحيـوان..

وجـاء الفـرج عندمـا تذكرنـا ان شـم النسـيم عـلى الأبـواب.. اقترحـت عليـه أن يدعـو حبيبتـه لأكلـة فسـيخ في القناطـر الخيريـة.. سـألني في بلاهـة عمـا إذا كانـت طريقتهـا في أكل الفسـيخ سـوف تفضحهـا، فقلـت لـه في غيـظ:

ـ«أنـت لـم تتعلـم شـيئًا.. لـو قبلـت أكل الفسـيخ أصـلاً فهـي تمـت لعالـم الوحـوش ولا تصلـح لـك يـا صاحـبي..»

وحـتى هـذه اللحظـة لا أعـرف مـا توصـل لـه، لكـني أرجـح أنـه سـيخدع نفسـه وسـوف يتزوجهـا في جميـع الأحـوال، حـتى لـو كانـت تلتهـم طنًـا مـن الفسـيخ مـع عـشرة أرغفـة مـن الخـبز، وحـتى لـو قالـت لـه بعـد الأكل «يـا دي السـخماط!».. لأننـا لا نـرى سـوى مـا نريـد أن نـراه.

وقائع اختفائي الغامض!

بعد أسبوعين من الذهاب إلى المدرسة في الصف الأول الابتدائي، قررت أنه لم يعد في قوس الصبر منزع وأن السيل قد بلغ الزبى وأي تعبير آخر يروق لك. لقد كرهت المدرسة كالجحيم وصممت على أن هذه نهاية قصتي مع التعليم. لكن ماذا أفعل بالضبط؟

كنت أذهب إلى المدرسة صباحًا ، فكنت أنادي ابن البواب الصعيدي (سباعي)، وهو شاب نشيط في الثامنة عشرة من عمره، يبرز لي من داخل الغرفة ويلف التلفيعة حول عنقه ثم يمسك بيدي قاصدًا المدرسة وهو يلهث من البرد، والبخار الأبيض يتصاعد من فمه ، ثم يتركني عند الباب مع توصية بألا أفعل كذا أو كذا.. وهكذا يبدأ يوم الجحيم حتى الظهيرة..

في ذلك اليوم قررت أن المدرسة انتهت بالنسبة لي. كان الوقت مبكرًا تمامًا وفناء مدرسة الإصلاح الابتدائية المبتل من أمطار البارحة شبه خال من التلاميذ. لا أعرف كيف ولا لماذا قررت أن الوقت قد حان..

بخطوات آلية توجهت إلى بناية الإدارة ومشيت حتى غرفة مديرة المدرسة.. نظرت من الباب فوجدت الغرفة الرهيبة

خاليـة تمامًـا. إضـاءة خافتـة أقـرب للظلمـة ورائحـة عطريـة خفيفـة في الجـو..

في هـدوء اتجهـت إلى أكـبر مقعـد في الأتريـه الوثـير الموجـود في ركـن الحجـرة، وزحفـت عـلى ركبـتي حـتى صرت خلفـه ثـم تكومـت عـلى نفـسي في وضـع القرفصـاء وأرحـت ظهـري للجدار..

كان الباركيـه بـاردًا والجـدار ثلجيًـا لكـني كنت سـعيدًا. بعقل طفل في الخامسـة كنـت أعـرف خطـتي جيـدًا.. في كل يـوم سـآتي إلى هنـا وأتـوارى خلـف هـذا المقعـد إلى أن تحـل سـاعة الانـصراف فأتسـلل إلى الخـارج وأعـود لبيـتي!.. هكـذا للأبـد وإلى أن أصـير رجـلاً كبـيرًا لا يقـدر أحـد عـلى إرغامـه عـلى الذهـاب للمدرسـة.. هكـذا جلسـت راضيًـا عـن نفـسي.. ومـرت السـاعات..

لا أعـرف الوقـت لكـني سـمعت صـوت الطابـور وطقوسـه ودقـات الطبـول و(تحيـا الجمهوريـة العربيـة المتحـدة).. لا تنـس أننـا في العـام ١٩٦٧.. ثـم سـمعت عـشرات الأقـدام تـضرب الأرض متجهـة لزنازيـن التعذيـب. ظللـت أهـئ نفـسي عـلى براعـتي.. ويبـدو أنـني نمـت قليـلاً..

صحـوت مـن نومـي فأخرجـت السـاندوتش مـن الحقيبـة والتهمتـه، وعـدت أجلـس تلـك الجلسـة المتعبـة الـتي لـم أتحملهـا إلا بالعنـاد والرغبـة في ألا تفشـل هـذه التجربـة.

مـر الوقـت.. ثـم سـمعت مـن يتكلـم.. هنـاك مـن يزيـح السـتائر ليجعـل إضـاءة المكتـب سـاطعة..

صـوت العاملـة العجـوز الطيبـة تقـول للرجـل إن مديـرة المدرسـة قادمـة بعـد قليـل..

لـم أفهـم مـن الـكلام سـوى أن المديـرة مختفيـة - ولعلهـا مختبئـة خلـف مقعـد آخـر - وأن هـذا الرجـل مهـم جـدًا. إنـه ينـوي الجلـوس.. إنـه يتجـه إلى.. إلى....

المقعـد الـذي تواريـت خلفـه.. آخ!.. هنـاك تفصيـل بسـيط هـو أن ردفيـه عملاقـان و أن هـذه المقاعـد تميـل للخلـف عندمـا يجلـس عليهـا رجـل بديـن. هكـذا وجـدت نفسي كفـأر في مصيـدة وقـد قطـع هـذا الرجـل المـاء والنـور عـني.. ومـددت رأسي أنظـر لـه..

كان شـديد البدانـة وقـورًا متأنقًـا.. وعـلى عينـه تلـك النظـارة السـوداء الـتي كانـت تـدل عـلى الأهميـة في ذلـك الوقـت. لا أعـرف مـن كان وزيـر التربيـة والتعليـم في ذلـك الوقـت لكـن لا أسـتبعد أنـه كان هـذا!..

كانـت هـذه هـي اللحظـة الـتي لـم أعـد أتحمـل بعدهـا فوثبت مـن خلـف المقعـد، وطـار الرجـل مـترًا في الهـواء وهـو يصرخ:

ـ«بسم الله الرحمن الرحيم!»

احتـاج إلى دقيقـة كي يسـتوعب الموقـف.. ودقيقـة حـتى يفهـم أنـني طفـل في الخامسـة..

وقف وسألني محاولاً التظاهر باللطف:

ـ«اسمك إيه؟»

لـم أرد.. حملـت حقيبـتي في كبريـاء وغـادرت المكتـب أمـام ذهولـه.

عندمـا عـدت إلى الفصـل قوبلـت بعاصفـة مـن الدهشـة.. لقـد كانـت هـذه هـي الحصـة الخامسـة!.. الـكل يسـألني أيـن كنـت فـأرد في غمـوض:

ـ«سباعي..»

لا ضمير لـدى الأطفـال وهـم يجيـدون الكـذب ويلتـذون بـه.. لهـذا أرسـلت المعلمـة خطابًـا لأمي تشكو فيـه المدعـو سـباعي. وفي البيـت اسـتجوبتني أمـي مـرارًا فلـم أكـن أرد إلا بكلمـة واحـدة هي :

ـ«سباعي!»

فيجـن جنونهـا.. لـو كان سـباعي يتلـكأ ويلعـب القمـار مـع أصدقائـه فلـن يتسـبب هـذا في تأخـيري حـتى الحصـة الخامسـة. الطفـل مـلاك لا يكـذب.. إذن أيـن كنـت يـا عـم سـباعي؟.. الفـتى يدافـع عـن نفسـه ويقسـم بأغلـظ الإيمـان أنـه أوصلـني للبـاب في الموعـد المناسـب..

طبعًـا لـم يصدقـه أحـد.. وظلـت علامـات اسـتفهام مريبـة تحيـط بـه، بينمـا صـار توصيـلي للمدرسـة مهمـة أبي أو أخـتي. بعـد أسـبوعين تركـت أسرة سـباعي البنايـة لتعـود إلى الصعيـد، ولا أعـرف إن كان لهـذا علاقـة باختطافـه لي أم لا.. عـلى كل حـال عـرف الجميـع حقيقـة القصـة فيمـا بعـد وتلقيـت علقـة لهـا

العجب..

في التسعينات من القرن العشرين ساد مفهوم إيذاء الأطفال أوChild abuse في الخارج، وعوقب آباء كثيرون لأنهم عذبوا أولادهم أو تحرشوا بهم جنسيًا، وصار بوسع أي طفل أمريكي أن يسجن أباه ويجد أبًا أفضل لو قال للقاضي إن أباه قبله على خده ثلاث مرات مثلاً. جاء القرن الواحد والعشرون ليكتشف العلماء النفسيون أن معظم هذه القصص ابتكرها الأطفال ولفقوها وبعضهم اعتبرها ذكريات حقيقية وهي ظاهرة (الذاكرة المزيفة) المعروفة. هكذا أعيد الاعتبار لآباء كثيرين ضاعت سمعتهم..

تذكرت قصة سباعي المسكين هذا.. مشكلته هي أن خصمه الكاذب كان في الخامسة من عمره، والأطفال لا يكذبون أبدًا كما تعلم. وما زلت حتى اليوم أتمنى لو وجدته لأقول له: أنا آسف..

هذه هي الوقائع الغريبة والمثيرة لذلك الاختفاء الغامض، ولهذا أطالب قراء هذه الجريدة الغراء بأن يحتفظوا بها ولا يخبروا بها أي واحد ممن لم يشتروا هذا العدد..

عاصم

لا أعرف حقًا السبب الذي دفعنا لتسميته بهذا الاسم. (عاصم) ليس من الأسماء المعتادة للقطط.. كل قط يحترم نفسه لابد أن يحمل اسم (مشمش) وكل قطة تحترم نفسها اسمها (بوسي)، لكن هذا الاسم العجيب ولد فجأة من دون ترتيب مسبق.

كان هذا الشيء الصغير بحجم قبضة طفل في الخامسة، يرقد جوار إطار سيارة في شارعنا ويصرخ كرضيع بلا توقف بصوت عال رفيع. لا يمكن أن يكون إنسان في مصر لم يسمع صراخه في ذلك الصباح، فلا أجد سوى احتمال أن أمه صماء أو أنها توفيت. تصرفت بلا تفكير وحملت الشيء الصغير في يدي وباليد الأخرى ابتعت له كيسًا من اللبن، وعدت لأتلقى اللوم من زوجتي التي لا تطيق أن تجد علبة ثقاب في غير موضعها. تصور ما سيحدثه هذا الشيطان الصغير من دمار في حياتنا.

وضعت القط الصغير أمامها وقلت لها في هدوء إن بوسعها أن تتخلص منه متى شاءت. طبعًا لكي تفعل ذلك يجب أن تحمل جزءًا من شخصية (أبو لهب) و(فرعون موسى) مع مسحة من (هتلر) و(آل كابوني)..

هكـذا سـمعت صـوت ميـاه الحـوض وصراخ القـط بينمـا زوجـتي تعطيـه الحمـام الأول، ثـم تنظفـه بمزيـل للبراغيـث، ثـم تفـرغ زجاجـة قطـرة العـين الخاصـة بي كي تسـتعملها هـي لإرضاعـه. ويتعـالى صـوت الفـم الصغـير وهـو يمتـص اللـبن مـن القطـارة.

شـعرت برضـا ونمـت سـعيدًا لأنـني أنقـذت هـذا الكائـن التعـس مـن المـوت تحـت عجلـة سـيارة.

المشـكلة هـي أن زوجـتي صـارت تكـرس وقتهـا بالكامـل مـن أجـل هـذا القـط الصغـير.. لدينـا أبنـاء لكنهـم كـبروا بمـا يكفـي. وأصبـت بالذعـر عندمـا وجـدت أنهـا تعـود مبكـرًا مـن العمـل كي لا يشـعر القـط العزيـز بأنـه وحيـد.

الآن صـار نصـف الثلاجـة مليئًـا بالسـمك المجمـد المخصـص للقـط العزيـز، ولا يمكنـك أن تمـشي في مـكان مـا مـن دون أن تشـم رائحـة السـمك المسـلوق اللعينـة. دعـك مـن رائحـة الفضـلات طبعًـا.. هنـاك أكـثر مـن وعـاء مـليء بالرمـل مخصـص لقضـاء حاجـة القـط، لكـن دعـني أؤكـد لـك أن هـذا لا يمنـع أن تـضرب الوعـاء بقدمـك وأنـت شـارد الذهـن لتتسـخ السـجادة، دعـك مـن الرائحـة طبعًـا لأن الرمـل لا يكفـي لإزالتهـا.

الوغـد الصغـير يمـرح في البيـت.. ينـام عـلى فـراشي وعـلى المقعـد الـذي أفضلـه عنـد مشـاهدة التلفزيـون، فـإذا مـددت يـدي لأبعـده كان رد الفعـل كالـبرق: بـخ خ خ!

وأسـترد يـدي لأجدهـا قـد تحولـت إلى شرائـح داميـة بحيـث

يمكن أن تلعب دور البطولة في أي من أفلام الرعب الحديثة. يمكن أن تجلس لتقرأ ثم ترفع عينك فجأة لتجده على المكتب جوارك، يربض على بطنه في وضع تربص كنمر وسط الأحراش، وهو يحرك مؤخرته حركة رحوية بطيئة بهدف ضبط التصويب. وهو يقصد طبعًا تلك الكرة السوداء الراقصة في محجر عينك..

هواية صيد العيون هواية محببة لديه لكن زوجتي مصرة على أنه يمرح لا أكثر.

قلت لها إن القط شرس بحق ومن الواضح أنه ينتمي لأسرة من أسفل قطط الشوارع شديدة التوحش، فقالت لي في حزم:

ـ«لقد حرم من أمه وهو ما زال رضيعًا فماذا تتوقع؟»

ثم تعرض علي التخلص منه بمعرفتي.. هكذا أتخيل هذا القط المدلل الذي يستحم بالشامبو بينما أنا أحمله في سيارتي إلى أرض قفر، ثم أتركه هناك وهو ينظر لي بعينين متسائلتين بينما أنا أركب سيارتي مبتعدًا..!.. مستحيل!.. لقد قرأت موقفًا شبيهًا في قصة (مومو) لإيفان تورجنيف، وما زال تذكر المشهد يبكيني فماذا عن عمل ذلك في الواقع؟

هكذا أقبل الخدوش واصطياد ساقي وكعب رجلي، وأتحمل.. المشكلة أن الوغد يكبر بسرعة جنونية وسوف يتحول إلى نمر خلال أسابيع. والغريب أنه لا يؤذي أحدًا في البيت سواي، فهو لم يخدش الأولاد قط.. معنى هذا أن

مشـكلته في الحيـاة هـي أنـا..

هنـاك قاتـل متعطـش للدمـاء تحـت سـقف بيـتي، ولا اجـرؤ عـلى التخلـص منـه كمـا أن زوجـتي تحبـه كثـيرًا وترفـض أن يؤذيـه أحـد. لهـذا أحيطكـم علمًـا : لـو وجدتـم في الأسـابيع القادمـة جثـتي ممزقـة بوحشـية وبركـة دم تحيـط بهـا، فـلا تتعبـوا رجـال الشرطـة ولا تضيعـوا وقتهـم الثمـين.. الفاعـل قـط وديـع حـرم مـن أمـه اسـمه (عاصـم)..

قط آخر

كان هـذا القـط مـن أرق مـن عرفـت.. لا أتحـدث عـن القطـط طبعًـا بـل عـن القطـط والبـشر معًـا.

جاءنـا وهـو صغـير السـن جـدًا انتهـى لتـوه مـن الرضاعـة، وهو سـليل أسرة نبيلـة مـن القطـط الروميـة تضـم بعـض اللـوردات والبارونـات كمـا قيـل لنـا. أبيـض اللـون كالثلـج رائـع الجمـال رشـيق أنيـق.. وقـد شـعرنا برهبـة ونحـن نـراه يجلـس منتصبًـا عـلى مقعـد جـوار مائـدة الطعـام المعـدة بمـا عليهـا مـن لحوم، وينتظـر في أدب أن يقـدم لـه نصيبـه فـإن لـم يحدث هـذا فلربما مـات جائعًـا.. كمـا أصابتنـا الدهشـة عندمـا رأينـا طفلـة في الرابعة مـن عمرهـا تحملـه مـن ذراع واحـدة وتمـشي بـه في الشـقة ، وهـو يفضـل أن يتـدلى كدميـة متأرجحـة عـلى أن يخمشـها أو يعضهـا.. هـذه أشـياء تفـوق تفكـيره..

قلـت لنفـسي وزوجـتي إن هـذا القـط راق فـلا أقـل مـن أن نعاملـه كمـا ينبغـي، وهكـذا نـال القـط النبيـل معاملـة جديـرة بأحـد أفـراد أسرة البوربـون.. حمـام بالشـامبو.. طعـام معلـب.. أفضـل قطـع مـن أيـة دجاجـة أو سـمكة نأكلهـا.. فـراش نظيـف.. الـخ..

عـاش القـط حيـاة هادئـة محتفظًـا بكبريائـه وهدوئـه، وحظـي

بأفضل تدليل ناله قط عرفته.. لا أعتقد أنني في طفولتي حظيت بهذا التدليل، ولو حدث لصرت إنسانًا أفضل بالتأكيد..

على أن عامًا مضى واكتشف القط اختراعًا مذهلاً لم يسمع عنه من قبل: الأنثى!

كان يقف على سور الشرفة يرقب الطريق، عندما تهادت تلك القطة في الشارع وهي تهز مؤخرتها في رشاقة.. قطة بنت بلد حسناء بادية الشراسة تعرف ما تريد وتعرف كيف تحصل عليه، ونظرت لشرفتنا للحظة ورمته بسهم أطار صوابه ثم توارت خلف صندوق قمامة..

منذ هذه اللحظة تبدل حال القط ابن الناس..

كانت تجربة الهرب الأولى قصيرة، وتتلخص في أنه فر من الباب ثم ركض على سلم البناية ووثب بين فرجات حديد البوابة.. وجن جنون زوجتي وهي تتخيله يركض بين إطارات السيارات هو الذي لم ير سيارة في حياته. مر أسبوع اعتبرت فيه أن هذه القصة انتهت تمامًا حتى فتحت الباب ذات يوم لأجده يقف في خزي وشيء من الرضا على الباب، بانتظار أن نسمح له بالدخول، كما يفعل الأب الذي يفر مع راقصة في الأفلام العربية القديمة ثم يعود لأم العيال طالبًا الصفح..

لكن قوانين اللعبة تغيرت.. في الشارع هناك براغيث وهناك جراثيم وهناك قطط وكلاب مسعورة ومريضة.. هكذا لم

يعد من حقه أن يبيت داخل الشقة مع الأطفال، وأعددنا له بيتًا صغيرًا على السلم وصار يأكل هناك ويقضي حاجته في علبة على سطح البناية..

الفرار الثاني كان أطول.. وهذه المرة لم يمر دون خسائر. لقد عاد لنا وقد بدأ يفهم قواعد اللعبة.. الجروح تملأ جلده وهناك عين موشكة على التلف.. لقد خرج إلى الشارع واشتبك مع قطط الشوارع، عندها تعلم أن فرصته في البقاء حيًا وسط هؤلاء ضعيفة إن لم تكن معدومة..

برغم شماتتنا الواضحة قمنا بتطهير جروحه وضمدناها، ثم عدنا نطعمه وإن تعلم أنه لم يعد مرحبًا به لهذا الحد، وبما أنه راق شديد الحساسية فهو لم يحاول أن يفرض نفسه علينا أكثر..

تكرر الفرار وفي كل مرة يعود وقد صار حاله في منتهى السوء.. يوشك هذا القط أن يصير مرجعًا في علم الطب الشرعي أو الإصابات.. لقد كاد عنقه ينفصل والدم يسيل منه في كل وقت. لا أعرف إن كان قد وجد فرصة للمرح الجنسي الذي تمناه لكنه بالتأكيد كان يخرج لتتدرب عليه قطط الشارع باعتباره كيس ملاكمة.. وفي حياتي كلها لم أر قطًا بهذه الحال السيئة حتى بدأت اخشى أن يتفتت على قارعة الطريق كأنه كيس من اللحم المفروم.

لقد تنازل عن عرشه بكامل إرادته، كما فعل (إدوارد) مع مس (سبمسون) من قبل، وهي التي كانت امرأة قبيحة مسنة

مطلقة.. هذا القط قد قادته المرأة إلى حتفه.. أفقدته كل شيء، وبالطبع كانت حالته لا تسمح بأن آخذه إلى بيت أحد أصدقائي ليتزوج قطة نظيفة بنت ناس.. لن يصدق احد أنه ليس مريضًا بمرض معد خطير..

بالفعل كان مصابًا بمرض خطير، وهو الحب..

لكنه ظل راقيًا شديد الكبرياء ، ولم يتعلم من قطط الشارع الشراسة أو اللصوصية.. فقط كان يُضرب في شرف وتعفف كأنه لورد بريطاني في لعبة الملاكمة..

متى فر نهائيًا؟.. لا أذكر..

فقط لم يعد هناك، وقد بحثت كثيرًا عنه حول البيت وفي الشوارع الفرعية فلم أجده ولم أجد جثته لحسن الحظ. لا شك عندي في أنه قد مات لكن هذا حدث بعيدًا.

كانت هناك كومة من أوراق الصحف في شارع جانبي أزحتها متوقعًا مشهدًا بشعًا، لكني فوجئت بقطط صغيرة تعوي خوفًا وجوعًا.. قطط بيضاء أنيقة رائعة الجمال.. لا شك أنها اكتسبت الجمال من الأب وسوء الطبع من الأم، وقد سرني ان أعرف أن هذا القط في جولاته الكثيرة لم يكن يتلقى الضرب فقط بل كان يصنع أشياء أخرى!!!

الشاردون

أشهر قصة تُحكى عن شرود الذهن هي قصة إديسون العالم الأمريكي العظيم الذي لم يحضر حفل زفافه. السبب هو انه انشغل في المختبر في تجربة مهمة، وقد بحثوا عنه كثيرًا فاتضح أنه كتب موعد الزفاف في مفكرته لكنه نسى!.. لا أعرف ما قاله لعروسه في تلك الليلة السوداء لكن التاريخ لا يحكي أن فسخ الخطبة قد تم على كل حال. هناك نيوتن عالم الرياضيات العظيم الذي كان جالسًا قرب المدفأة ولا يشعر بالدفء.. هكذا طلب من خادمه أن ينزع المدفأة من الجدار ويقربها منه.. قال له الخادم في أدب:

ـ«لماذا لا يقوم سيدي بتقريب مقعده من النار؟»

هنا شهق نيوتن، وأعلن أن خادمه عبقري حاضر الذهن فعلاً!.

القصة الأغرب هي (تشسترتون) الكاتب المسرحي البريطاني الشهير الذي وقف في طابور مكتب البريد ليحصل على حوالة مالية، فلما بلغ الشباك اكتشف أنه نسي اسمه!.. وكان أول ما قاله للموظف المذهول:

ـ«معذرة يا سيدي.. لكن هل تعرف اسمي؟!!»

يمكننا بسهولة أن نتصور ما قاله الموظف وما فعله.

شرود ذهـن العباقـرة أمـر معـروف للجميـع، وإن كان يسـبب الدهشـة أولاً.. وكثـيرًا مـا يدفـع النـاس إلى اعتبـار العبقـري عـلى شيء مـن الخبـال أو الجنـون.. لكنهـم بعـد ذلـك يقبلونـه باحـترام.

لكـني أعـترف أن شرود الذهـن لا يـدل عـلى العبقريـة في كل الظـروف، بـل قـد يـدل عـلى عقـل خـاو تمامًـا.. وباعتبـاري مـن الذيـن اشـتهروا بـشرود الذهـن، فإنـني أقـر وأعـترف أن أغلـب الأوقـات الـتي شـوهدت فيهـا شـاردًا لـم يكـن في رأسي أي شيء مفيـد، لكـن النـاس تنظـر لي في احـترام، وتتصـور أني أنظـم قصيـدة عصمـاء أو قصـة عبقريـة..

أشـهر مـن عـرف بـشرود الذهـن في عالـم الأدب هـو الأديـب المـصري (توفيـق الحكيـم)، لكـن المخـرج (محمـد كريـم) جلس معـه طويـلاً أثنـاء كتابـة سـيناريو فيلـم (رصاصـة في القلـب) ولاحـظ أن جـزءًا مـن هـذا الـشرود إرادي تمامًـا.. مثـلاً لاحـظ أن توفيـق الحكيـم يجلـس شـارد الذهـن وذقنـه مسـتندة عـلى مقبـض عصـاه، فيقـول لـه محمـد كريـم:

ـ«هناك فتاة حسناء سألت عنك أمس..»

عندهـا يفيـق الفيلسـوف الشـارد عـلى الفـور، ويسـتفسر عـن كل التفاصيـل. هـذا إذن شرود إرادي يفيـق منـه مـتى شـاء.

الموسـيقار عبـد الوهـاب اشـتهر بالـشرود الحقيقـي، ويقـول

كل من اقتربوا منه إنه كان يزوم كالقطط طيلة الوقت لأن الألحان لا تكف عن زيارة عقله. أحمد شوقي الشاعر كان شارد الذهن كذلك، وكان يخرج علبة السجائر كل بضع دقائق ليدون على هامشها بضعة أبيات قبل أن تضيع.

على كل حال، يمكنك أن تنجو بشرودك فلا يسخر منك أحد إذا أقنعت الناس أنك فنان.. وهو حل لابد أن تلجأ إليه إذا أردت أن تنجو من مواقف محرجة جدًا..

مثلاً ذات مرة كنت شارد الذهن وقابلت امرأة ذات وجه مألوف على سلم بيتي فهززت رأسي وقلت في وقار متحفظ:

-«مساء الخير»

وواصلت النزول.. فقط بعد ربع ساعة تذكرت أن التي قابلتها هي أختي!.. والله العظيم حدث هذا وليس من تأليفي..

في مرة أخرى كانت زميلة عمل مملة تكلمني بصوت رتيب عن أشياء كثيرة، فلجأت إلى الحل الأمثل وهو صوت (م م م!) كل ثلاثين ثانية بما يوحي بأنني أتابعها..

-«.....»

-«م م م م!»

-«.....؟؟»

-«م م م م!»

وفجـأة فطنـت إلى أنهـا تنظـر لي في لـوم وقـد كفـت عـن الـكلام الرتيـب، ولمـا نظـرت لهـا قالـت:

ـ«أنا أسألك!!.. وكالعادة لا إجابة عندك إلا (م م م)»

هـذه مواقـف محرجـة جـدًا لهـذا عليـك أن تقنـع النـاس عـلى سـبيل الاعتـذار أنـك عبقـري وأنـك تفكـر في عظائـم الأمـور.. عليـك أن تعتـذر ثـم تخـرج ورقـة مطويـة وتـدون فيهـا بعـض الكلمـات بلهفـة ويـد ترتجـف.. ثـم تتنهـد في ارتيـاح كمـن فـرغ مـن آخـر بيتـين في ملحمـة الإليـاذة.

غرابـة أطـوار؟.. ربمـا.. لكنهـا ليسـت أغـرب مـن أن تقابـل أختـك فـلا تعرفهـا، أو تكتشـف زميلتـك انـك لا تسـمع حرفًـا ممـا تقـول..

وكمـا هـي العـادة، شرود الذهـن سـوف يجعلـني أفـرغ مـن كتابـة هـذا المقـال ثـم أرسـله لـزوج خالـتي كمـا أفعـل في كل مـرة ، بـدلاً مـن إرسـاله لهـذه المجلـة الغـراء. لكـني سـأزعم لـه أنـني كنـت أفكـر في المقـال التـالي!

سفارة القطب الشمالي

ربما يصعب على الأخوة الخليجيين فهم هذه المشكلة، لكنني أتحدث عن مصر حيث الجو أقرب إلى البرودة أو على الأقل كان كذلك قبل أن يتكفل (الاحتباس الحراري) بحل المشكلة. الظاهرة التي لاحظتها من خلال عملي كطبيب هي أن الناس تخشى البرد جدًا.. تعتقد أنه المسئول عن كل مشكلة صحية تصيبهم، ولكم من مرة فحصت مريضًا في شهر أغسطس والعرق المنهمر من جبيني يوشك على أن يصير بركة صغيرة يغرق فيها المريض، عندها أكتشف أنه يلبس سروالاً صوفيًا كاملاً تحت ثيابه.. وفي الصباح ترى في الشارع ذلك الرجل الذي يلبس معطفًا من الصوف وقد لف رأسه بتلفيعة صوفية سميكة.. كل هذا جميل فيما عدا أننا في يوليو.!

البرد هو المسئول عن كل الأمراض من التهاب القولون حتى سرطان شبكية العين.. هكذا يؤمن الناس. لو أن أحدهم صحا ليجد لنفسه رأسين وثلاثة أعين لاتهم تيارات الهواء البارد..

أعتقد أن هذه الخبرة تنشأ لدينا من أمهاتنا.. أذكر أن أمي يرحمها الله كانت تصر على أن ألبس بول أوفرين وفي أيام المطر كانت تشفع هذا بورق الصحف تغلف به جسدي،

وهكـذا أخـرج للمدرسـة متصلبًـا متخشـب الحركـة كأنـني أول برميـل يرسـلونه للمدرسـة، أو أول إنسـان آلي مـصري.. حـتى عندمـا أجلـس في الصـف أصـدر صوتًـا غريبًـا كأنـه خشـب يتهشـم.. وذات مـرة وجـه صديـق مشـاكس لكمـة لبطـني فكادت يـده تتكـسر..

برغـم هـذا كنـت أصـاب بحمـى أو رشـح، عندهـا تلومـني أمـي لأنـني لـم أحـترز مـن الـبرد بمـا يكفـي..

كـبرت وصرت مـن القـوة بحيـث لا يسـتطيع أحـد أن يرغمـني عـلى لـف جسـدي بالصحـف.. عندهـا وقفـت أمـام المـرآة وواجهـت نفـسي بالحقيقـة:

ـ«أنا حراااااان!»

نعـم.. لا يوجـد مخلـوق في الكـون يشـعر بالحـر مثـلي. العـرق يسـيل مـن جبيـني حـتى في يناير، ولا أتحمـل أن أنـام تحـت الغطـاء في مـارس..

لقـد قضيـت طفولـتي مذعـورًا مـن الـبرد، وحـان الوقـت كي أنطلـق وأعيـش حيـاتي كمـا أريـد.. هكـذا ابتعـت أجهـزة تكييـف في كل مـكان أتواجـد فيـه، مـع عـدد لا بـأس بـه مـن المـراوح. لـو دخلـت عـلي في أي مـكان لشـعرت بالقشـعريرة حيـث تيـارات الهـواء توشـك عـلى أن تطـيرك. هنـاك عـدو عتيـد في قصـص الرجـل الوطـواط المصـورة اسـمه (مسـتر فريـز) أو (السـيد صقيـع).. هـذا العـدو كان مرغمًـا عـلى أن يعيـش في درجـة حـرارة تقـل عـن الصفـر ، ولهـذا كان يعيـش في كهـف ثلجـي ويلبـس بـزة

مبردة.. أعتقد أنني أصلح الناس للعب دور هذا الشرير..

لكنك في مصر حيث لا يسمح لك بأن تمارس كل هذا البرد في حياتك.. هناك مشكلة خطيرة جدًا اسمها (الآخرون).. هناك زوجتي التي تؤمن بأنني سأقتل الأطفال ما لم أقم بإطفاء جهاز التكييف. صديقي الذي يركب سيارتي يكون أول شيء يفعله هو أن يمد يده لجهاز التكييف ليخفضه. مع التحذير الشهير:

ـ«ستتعب صدرك بهذه الطريقة»

دعك بالطبع من هؤلاء الحساسين.. وأنا أعرفهم وأشمهم من على بعد أميال. يدخلون أي مكان فيه مروحة فيمدون يدهم على الفور ليغلقوها (لأنها تسبب الصداع).

تقول في حياء إن الطقس حار وتجفف عرقك، فيقولون في ثقة:

ـ«ستتعب صدرك بهذه الطريقة»

وهكذا تتحول أنت إلى كتلة تعسة من العرق اللزج، ويسيل العرق ليحرق عينيك فتفتحهما بصعوبة، بينما هم في منتهى السعادة والرضا عن النفس..

أشعر وقتها أن هذا الرجل لا يمكن أن يصاب بصداع.. لكي يصاب بصداع يجب أن يكون لديه رأس..

نعم.. أنا أمقت الحر وأتمنى أن يعود العصر الجليدي لأخرج من بيتي على منظر الثلوج تكسو الشارع.. لكن لا تأتي الرياح

بما تشتهي السفن، وكل مكان يتحدث عن الاحتباس الحراري والتسخين وثقب الأوزون، بما يعني أن القطبين سيتلاشيان عما قريب، ونصير نحن مع الأسماك..

ربما يعني الاحتباس الحراري نهاية الحياة كما نعرفها، لكنه بالتأكيد سيسعد كل هؤلاء لأنهم لن يشعروا بالبرد ولن يتعرضوا لتيارات الهواء ولن يصيبهم الصداع..

حتى تأتي تلك اللحظة هل تعرف إن كانت هناك سفارة للقطب الشمالي؟.. وكيف يستخرجون التأشيرة للذهاب هناك؟

هل تأملت نهرًا؟

هناك قصة شهيرة جدًا عن خروشوف رئيس الحزب الشيوعي السوفييتي، الذي كان سليط اللسان لا يجامل، وهو أول وآخر رجل ينزع حذاءه ليدق به على المنصة في الأمم المتحدة. عندما زار معرضًا للفن الحديث.. ظل يمشي بين اللوحات صامتًا ثم قال في النهاية:

-«هذه اللوحات مرسومة بذيل حمار وأنا لا أقول هذا كناقد فني بل كرئيس اللجنة المركزية للحزب!»

طبعًا عندما تقال هذه الكلمة في أمريكا أو أوروبا فهي لا تعني سوى إحراج الفنان، بينما عندما تقال في بلد شمولي شيوعي فمعناها أن الفنان قد انتهى.. صار بطة ميتة..

الحق إنني عندما أتأمل لوحات الفنانين الجدد الحداثية أفهم رأي هذا الرجل جيدًا وأضيف أنه من الأفضل إعدام هؤلاء الفنانين جميعًا ليكونوا عبرة لسواهم.. هناك ألوان تنسكب على ألوان وخطوط تقتحم خطوطًا.. يستحيل أن تفهم أي شيء أو تشعر بأية متعة، ولقد رأيت على شاشة التلفزيون لوحات رسمها درفيل، أكثر روعة وإتقانًا من هذه. المصيبة عندما يظهر أحد أساتذة الفنون ليتكلم عن (البنية اللونية في تشييء الموجودات والتعامل الوحشي مع اللون

بشكل يقترب كثيرًا من التصوف.. إنه الجدل الذي لا ينتهي بين المادة والروحانيات)..

أبحث في اللوحة عن بنية لونية وتعامل وحشي فلا أجد حتى التعامل الإنسي، ولا أرى أي تصوف في اللوحة.. لا يوجد جدل بين المادة والروح إلا لو كانت المادة تعني المال والروحانيات تعني المشروبات الروحية.. هنا أفهم.. الفنان كان ثملاً ورسم الصورة لأنه محتاج للمال..

المشكلة أنك لا تستطيع أن تعلن هذا.. انتهى العصر السعيد عندما كان بوسعك أن تقول عن اللوحة الرديئة إنها كذلك.. كلهم عباقرة مبدعون وأنا الجاهل الوحيد..

تذكرت قصة جميلة لأندريه موروا تحكي عن فنان مبدع مغمور لا يبيع لوحة واحدة من لوحاته. زاره صحفي من أصدقائه فرق لحاله.. اقترح عليه أن يدعي أنه ابتكر أسلوبًا جديدًا في الفن اسمه (الطريقة النفسية التحليلية)..

ـ«هل يمكنك أن ترسم لي بعض اللوحات تحوي كلامًا فارغًا؟.. مثلاً امرأة جميلة وحولها أوراق مالية كناية عن حب المرأة للثراء.. مثلاً رجل بدين متأنق حوله دموع ودم كناية عن غني الحرب.. هل تستطيع ذلك؟»

ـ«بالتأكيد..»

ـ«إذن نفذ عشر لوحات بهذه الطريقة وسوف أكتب أنا مقالاً عن طريقتك العبقرية وعن معرضك القادم»

وهكـذا أنجـز الفنـان هـذا الـكلام الفـارغ في ليلـة واحـدة، وجـاء يـوم المعـرض الـذي احتشـدت باريـس كلهـا لـتراه.. كان هنـاك حشـد مـن النقـاد الفنيـين، فقـال الصحفـي للفنـان:

ـ«لا تخـف.. كلمـا سـألك أحدهـم عـن معـنى (الطريقـة النفسـية التحليليـة) اكتـف بـأن تنفـث دخـان الغليـون في وجهـه وقـل: هـل تأملـت في حياتـك نهـرًا؟.. سـوف يتظاهـرون بأنهـم فهمـوا!»

نفـذ الفنـان التعليمـات.. كلمـا التـف حولـه نقـاد أو صحفيـون وسـألوه عـن مغـزى أسـلوبه، نفـث الدخـان في وجوههـم وقـال: «هـل تأملتـم في حياتكـم نهـرًا؟..»

هكذا يصيحون في انبهار:

ـ«هذا صحيح.. يا له من عبقري!»

انتهـى المعـرض بعـد مـا بيعـت اللوحـات بثمـن باهـظ، وصـار الفنـان أهـم فنـان في باريـس..

جاءه الصحفي ضاحكًا بعد رحيل الناس وقال:

ـ«هـل رأيـت كيـف خدعنـا هـؤلاء القـوم بلوحاتـك عديمـة القيمـة؟»

نظر له الفنان في حزم وقال:

ـ«هـل أفهـم مـن هـذا أنـك تنتقـد طريقـتي النفسـية ا لتحليليـة ؟ »

صاح الصحفي في غيظ:

ـ«هلم!.. لا تصدق نفسك.. أنت تعرف أنه لا يوجد شيء اسمه (الطريقة النفسية التحليلية)»

هنا نظر له الفنان طويلاً ثم نفث دخان الغليون في وجهه وقال:

ـ«هل تأملت في حياتك نهرًا؟!!!»

عن شجاعة الجهل

كنت متأخرًا عن ذلك الموعد مع رجل لم أزره في بيته من قبل، وعندما أوقفت سيارتي في تلك الساحة الخالية خارج المدينة بدا لي منظر البيت جديرًا بفيلم رعب.. فقط سوف يخرج من الداخل ذلك الرجل مشوه الوجه الذي يحمل منشارًا ترددًيا يريد أن يقطع به أطرافي.. هذا ما ينقص المشهد..

على كل وجدت بابًا مفتوحًا يقود لما يمكن أن يكون مرآبًا خاليًا، فدخلت في ثقة وأنا أنادي الرجل.. هناك غرفة مفتوحة على اليسار دخلتها.. فوجئت بالرجل الذي جئت لزيارته جالسًا خلف مكتب، وقد امتقع وجهه فصار بلون الورقة، وهو ينظر لي في ذهول نظرة أثارت رعبي.. وسأل بلهفة:

ـ«كيف دخلت؟»

ـ«وجدت الباب مفتوحًا و..»

عاد يكرر في جنون:

ـ«كيف دخلت؟»

ثم أمسك بي بيد راجفة باردة واقتادني إلى مدخل الغرفة

التي نحن فيها، هنا خيل لي أن أبواب الجحيم انفتحت. هناك كلبان أسودان عملاقان جديران بالأساطير الإغريقية، يبلغ ارتفاع الواحد منهما ارتفاع كتفي بلا مبالغة، وكانا يزأران ويعويان وينبحان واللعاب يتطاير من شدقيهما، والعيون تلتهب بضوء فوسفوري مخيف.. لكنهما كانا مدربين على عدم دخول هذه الغرفة لحسن الحظ..

قال الرجل وهو يشير لهذين الوحشين:

ـ«هذان كان يمكن أن يمزقاك!.. أنا نفسي أخشاهما ولا أضمن ألا ينقلبا علي!.. كيف دخلت بهذه الجرأة؟.. ولماذا لم تقف على الباب لتناديني كي أدخلك؟»

نظرت للكلبين وتذكرت كيف دخلت وحدي في شجاعة وثقة وخفة، وقلت بصوت مبحوح:

ـ«هذه شجاعة الجهل!»

هذا المشهد خالد في الأفلام العربية الكوميدية على كل حال. صديق البطل يلبس ثياب الغوريلا ليثير رعب حبيبة البطل.. هنا يحدث خلط وتظهر غوريلا حقيقية هاربة من حديقة الحيوان، لكن البطل لا يعرف.. يعتقد أن الغوريلا الحقيقية هي صاحبه المتنكر ويربت عليها ويحتضنها ويصارعها.. كل هذا نموذج على شجاعة الجهل. ثم تأتي لحظة الحقيقة عندما يرى صديقه يجري مذعورًا من بعيد.. عندها يقلب الموقف في ذهنه.. يبدأ في الفهم، في ذات اللحظة تكشر الغوريلا الحقيقية عن أنيابها وتنقض عليه..

لقد تخصص (فؤاد المهندس) رحمه الله في هذا المشهد..

في رحلة ريفية رأيت مجموعة من أصدقائي يلعبون لعبة سخيفة: علقوا زجاجة مياه غازية فارغة بحبل من غصن شجرة وجعلوها تتأرجح كبندول الساعة، ثم راحوا يصوبون عليها بالبندقية من مسافة بعيدة نسبيًا.. دنوت منهم وقررت أن أجرب.. ما هذه؟.. بندقية؟.. كيف تطلقون بها؟.. ما المطلوب بالضبط؟.. إصابة هذه الزجاجة؟.. دعوني أجرب.. وضغطت الزناد بلا تفكير لتتناثر شظايا الزجاجة في كل اتجاه ويشهق أصدقائي ذهولاً.. عرفت فيما بعد أنهم يحاولون منذ ساعة وأن ثلاثة منهم حاصلون على جوائز في الرماية لكنهم فشلوا!.. لو كنت أعرف هذا كله مسبقًا لفشلت حتمًا..

شجاعة الجهل.. لولاها لما فعلنا أي شيء لأننا نتوقع الفشل منذ البداية..

لهذا لم أندهش عندما قرأت عن ذلك الشاب الأمريكي الذي دخل قاعة المحاضرات متأخرًا فوجد على لوح الكتابة معادلة غير محلولة. نسخها وافترض ان هذه هي واجبه المنزلي.. هكذا عاد لداره وسهر حتى أتم حل هذه المعادلة وقدمها لأستاذه في اليوم التالي.. أصيب الأستاذ بالذهول، وطلب الفتى ليخبره بالحقيقة: هذه المعادلة لا حل لها أو هكذا اعتقد أساتذة الرياضيات عبر التاريخ، وقد كتبها الأستاذ على لوح الكتابة كنموذج للمعادلات مستحيلة الحل.. الطالب الذي لم يعرف هذه الحقيقة حلها في ليلة

واحـدة!!

لا أعـرف مـدى صحـة هـذه القصـة، لكنـني متأكـد مـن قصـة أخـرى عـن طالـب أمريـكي عابـث لاه، طلـب منـه أسـتاذه بحثًـا في الفيزيـاء موضوعـه (إمكانيـة أن تتمكـن مجموعـة إرهابيـة مـن صنـع قنبلـة ذريـة).. هـذا البحـث كان فرصتـه الأخـيرة قبـل الطـرد مـن الكليـة نهائيًـا.. هكـذا عمـل الطالـب بجـد عـلى هـذا البحـث وسـهر كثـيرًا جـدًا.. في النهايـة تمكـن مـن تقديـم البحـث لقسـم الفيزيـاء بعـد أسـبوعين، وكل همـه ألا يرسـب نهائيًـا ويطـرد مـن الكليـة. بعـد يومـين فوجـئ بمـن يزورونـه مـن رجـال CIA ورجـال FBI ومهمتهـم معرفـة هـل هنـاك جهـات أجنبيـة قدمـت لـه معلومـات بصـدد هـذا البحـث؟.. لقـد توصـل الفـتى بالفعـل إلى طريقـة عمـل القنبلـة الذريـة!.. وبالطبـع صـودر البحـث وإن سـمحوا للفـتى بـأن يكتـب كتابًـا عـن قصتـه هـذه دون ذكـر تفاصيـل. هـذا الخـبر كان مشـهورًا جـدًا في الثمانينـات وكتبـت عنـه الصحـف كلهـا. الفـتى الـذي كان يجاهـد كي لا يرسـب توصـل إلى اللغـز الـذي تدفـع أجهـزة المخابـرات في العالـم كلـه الملايـين كي تعرفـه..

العـبرة الأخلاقيـة مـن هـذا المقـال؟.. أنـا أكـره المقـالات الـتي تكتـب مـن أجـل عـبرة أخلاقيـة مـا، لكنهـا عـلى كل واضحـة تمامًـا هنـا.. يجـب أن نتحـلى بشـجاعة الجهـل ولا نفكـر في مـدى صعوبـة مـا نحـن بصـدده، ولا بعـدد مـن فشـلوا قبلنـا.. هـذه هـي الطريقـة الوحيـدة الممكنـة للنجـاح، أمـا لـو حاصرتنـا أشـباح المخـاوف قبـل أن نبـدأ فلسـوف تخـرج تلـك الـكلاب

السـوداء المفترسـة لتمزقنـا قبـل أن نخطـو خطـوة واحـدة!

رانية تحبني

نعم يا عمي.. (رانيه) تحبني.. أنا مؤمن بهذا..

نحن متزوجان منذ خمسة أعوام، وقد منحتها كل شيء يمكن أن يمنحه رجل بلا جناحين ولا خياشيم لزوجته. الآن هي غاضبة وتقيم بشكل مستمر عند والدتها, ولا أعرف السبب لكنني أرجح أنها تحبني فعلاً، وما هذا التصرف إلا نوعًا من الدلال المبالغ فيه..

نعم.. هناك موضوع الصور المشتركة لنا التي قامت بقصها بالمقص بحيث تزيل الجزء الخاص بي.. هذه نقطة لصالحك، لكني أؤكد لك أن هذا لا يعني أنها تكرهني.. أعتقد أنها أرادت التخلص من هذه الصور، ولم يهن عليها أن تلقي بصورتي في القمامة لذا احتفظت بصوري في موضع خاص ثمين..

(رانية) مولعة بالإنترنت.. تقضي الساعات أمام برامج الشات وتغلق الشاشة عندما أدخل.. انا لا أفهم في الكمبيوتر لهذا أعجب كثيرًا بقدرتها على التعامل مع هذا العلم المعقد.. هل تلومني على ذلك أيضًا؟

(رانية) مولعة بالأدب لهذا تكتب خطابات طويلة جدًا، ثم تملأ أناملها بالعطر وتنثرها على الرسالة.. هل تلومها

على ذلك كذلك يا عمي؟.. هذا اهتمام أدبي حميد، وأدباء كثيرون في التاريخ كانوا يعطرون الورق الذي يكتبون عليه.. اهتمام شديد بقدسية الكلمة، فلماذا توجه لها اتهامات بهذا الصدد؟. بالطبع أنا لا أقرأ محتويات الخطابات لأنها خصوصية.. هل تتوقع مني أن أفعل ذلك؟

أمها تقول لي إن (رانية) تريد الطلاق وإن عريسًا جاهزًا ينتظر هذه اللحظة ليفوز بها.. أمها تقول لي ألا أتصل بالبيت ثانية.. أمها تقول لي: «فلتفعل ما تريد لكنك ستطلقها في النهاية». أقول لك : منذ متى أحبتني أمها؟.. منذ أيام الخطبة والحب الأول وأمها تكرهني كالجحيم.. لكن ماذا عن رأي (رانية) نفسها؟.. أنا أرى أن (رانية) جوهرة وسط الغبار.. وعلي أن أمد يدي لأستعيدها..

تذكرني بقصة الحادث؟. عندما اصطدمت سيارتي بتلك الشاحنة العملاقة فتحولت إلى علبة تبغ أطبق عليها رجل مجنون قبضته حتى هشمها. كانت رانية مذعورة جدًا وراحت تبكي أمام باب المستشفى ثم سقطت على الأرض فراحوا يرشون الماء على وجهها.. كانت تردد بلا انقطاع:

ـ«السيارة جديدة ولم تقطع أكثر من ألف كيلومتر.. السيارة جديدة!»

بالطبع هي ليست قلقة على السيارة.. لا تكن طفلاً.. هي قلقة علي لكن الصدمة جعلتها لا تعرف ما تقول..

حتى ذلك اليوم الذي ابتلعتُ فيه بطريق الخطأ ذلك

الخاتم.. قالت لي في رعب: «يجب أن ينزل هذا الخاتم بأي ثمن!». لا تقل لي من فضلك إنها كانت خائفة على الخاتم.. هذه مبالغة.. هل تذكر مدى قلقها وهي تروح وتجيء أمام الحمام بانتظار لحظة نزول الخاتم واستعادته؟.. كانت قلقة علي فعلاً..

خلافات بسيطة في الرأي بيننا لا تفسد للود قضية.. مثلاً أنا أريد قضاء عطلة الصيف في تركيا.. هي تريد الطلاق!.. كما ترى يمكن تقريب وجهات النظر لنصل لاتفاق مشترك..

عندما جئت أنت في تلك الليلة يا عمي لتصلح بيننا، ظللت تصغي في صبر لعشرات المواضيع اللزجة التي لا تكف هي عن استعادتها والشتائم في شخصي ، وشربت عشرات أقداح القهوة والحيرة على وجهك. في النهاية وقد اقترب الفجر نهضت وقلت وأنت تضحك:

-«إنها تهيم بك حبًا.. هذا واضح.. هيء هيء!.. إنها فقط تتدلل!»

وبادرت بالفرار بجلدك حامدًا الله على سلامتك.

لكن في المرة التالية - بعد خروجك من العناية المركزة بسبب ارتفاع الضغط الناجم عن كل هذه القهوة - قلت لي إن (رانية) لا تحبني وإنه من الأفضل أن أتخلص منها أو أتركها تتخلص مني. ما سبب تغير وجهة النظر بهذا الشكل؟.. هه؟

أسمع أنها لا تكف عن البكاء، وأنها تتردد على الدجالين الذين يقنعونها بتسخير الجان للتخلص مني، وسمعت أنها تهدد بالانتحار لو لم أطلقها.. هل تصدق هذا الهراء؟..

إن رانية تحبني يا عمي.. أعرف هذا وأؤمن به.. فقط هي تسرف في الدلال، ولسوف ينتهي هذا كله وترتمي في أحضاني وتخبرني كم أنا زوج ظريف حبوب..

سوف ينتهي هذا كله..

لكن أين ومتى وكيف؟

العقرب الإلكتروني

علاقتي بجهاز الهاتف المحمول علاقة معقدة جدًا، قوامها الشك والتوجس والكراهية المتبادلة. أعرف أن هذا الجهاز الكريه سوف يقتلني يومًا ما بضغطه اللحوح على أعصابي، وهو يعرف أنني أنتظر أي خطأ له كي ألقي به في أقرب علبة قمامة أو على الأرض، توطئة لأن أحوله إلى دقيق صالح لصنع أول رغيف رقمي في التاريخ..

أشعر بأنه عقرب في جيبي ينتظر الفرصة ليلدغني.. لا أعرف متى ولا كيف.. فقط سوف يفعل هذا وهو يعزف لحنًا قصيرًا مرحًا..

هكذا نمضي.. نبدو لمن يرانا صديقين لا يفترقان، لكننا في الحقيقة نكره بعضنا بجنون..

لا أعرف متى ولا كيف اشتريت هذا الجهاز. كان كل الناس يحملونه وفي يوم من الأيام قررت أن أبتاع واحدًا لزوجتي، لكنها أعلنت أنه قبيح وشكله منفر وأنها تخجل من إخراجه أمام الناس أو سماع رنينه. هكذا وجدت نفسي احمل الجوال للمرة الأولى في حياتي..

مع الوقت غدت الحياة أكثر تعقيدًا وتشابكًا بحيث صار هذا الجهاز مهمًا فعلاً. عليك أن تقبل به أو تبقى في الظل

لا تعرف شيئًا عن أحد ولا يعرف عنك أحد..

منذ ذلك الحين أحاول التخلص منه وفي الوقت نفسه لا أجرؤ على ذلك..

هناك أولاً مشكلة دائمة: جهازك المحمول قديم وبال وفضيحة في أي وقت. أسأل من يفهمون هذه الأمور فيحك الواحد منه ذقنه ويقول: «أفضل نوع هو بوكيا LMSDH ٢٥٤٢٤٨٩٥٣٤٦٨٩٨».. إنه ممتاز..

هكذا أشتري الجوال المدعو بوكيا ٢٥٤٢٤٨٩٥٣٤٦٨٩٨ LMSDHوأقضي أسود ليالي حياتي في قراءة كتيب التعليمات. الجهد الذي أحتاج له يقترب من الجهد اللازم للتحكم في أحد أقمار ناسا الصناعية. في النهاية أمشي بذلك الوغد في جيبي.. أحضر محاضرة أو ندوة فيدق الهاتف.. أخرجه وأتكلم.. هنا يبدو الذهول على الوجوه.. كيف يحمل مثل هذا الجوال الرخيص الرديء؟. إما أن يكون بخيلاً أو مجنونًا أو - على الأقل - سفيهًا..

ثم يأخذني أحدهم إلى جانب ليقول لي في خجل وتهذيب: «بصراحة ده مش مقامك». إن الحياة معقدة بما يكفي، فلا يمكن أن نزيدها تعقيدًا بجوال حقير مثل هذا، وأنا رجل محترم أو هكذا كان يحسبني حتى رأى هاتفي.. وينصحني بشراء الجوال المدعو جودزيلا F4667Dj9iBBC78-L3 فهو مناسب للون عيني..

المشكلة أن الجوال جودزيلا F4667Dj9iBBC78-L3 يصير

قديمًا مخجلاً بعد خمس دقائق من شرائه. هكذا تكتشف أن عليك شراء عقرب أحدث كل خمس دقائق.. هناك هواتف جوالة حديثة تحجز لك مواعيد السفر، وتشتري لك السجائر والجريدة، وتعد لك الإفطار، وتأخذ العيال والمدام في نزهة بدلاً منك.. في مصر هناك جوالات تقف في طابور الخبز وتبتاع لك الفول والطعمية صباحًا..

الخلاصة أن الهاتف الجوال صار أقوى مني.. صار التخلص من حياتي أسهل بكثير من التخلص منه، وقد جربت عدة مرات أن أنساه في مطعم.. في كافتيريا.. في مسجد بعد الصلاة.. وفي كل مرة آمل أن يضيع فتكون حجتي قوية أمام الناس ونفسي، فتوصلت إلى هذه الحقيقة: سرقة الجوال لا وجود لها في العالم.. هناك من سيلاحقك جريًا وهو يحمل الجوال، ثم يتوقف لاهثًا وابتسامة على وجهه، والعرق يغمر جبينه:

ـ«الموبايل يا أستاذ!»

هناك من يحتفظ به حتى تدخل المصلحة الحكومية أو المسجد مرة أخرى، ليصيح في انتصار وهو يفتح الدرج أو خزانة المسجد:

ـ«ابن حلال!.. لقد نسيت الموبايل!»

أمانة تفوق الحد فعلاً، لهذا أندهش كلما سمعت أو قرأت عن فلان أو فلان اللذين ضاع منهما الهاتف الجوال.. كأنهما يعيشان في عالم خيالي جميل تضيع فيه هذه الأجهزة

الكريهة..

أما عن تجاهل رنين الجوال فيجلب عليك سخط الجميع.. سرعان ما ينظر لك الجميع في حدة كأنك أحمق أو (مسطول) وينتظرون منك أن ترد. لو أخرسته لراح يئز كالدبور في جيبك حتى تجد أنك لا تشعر بجانب صدرك أو جانب فخذك حسب الجيب الذي اخترته، ثم يجدك من كان يتصل ويبدأ بالصراخ متهمًا إياك بالوقاحة والتعالي لأنك تجاهلته.

الجوال يمتص ميزانية البلد و٩٠٪ من استخدامه يتم في كلام فارغ، فلا تزعم من فضلك أن كل المكالمات مهمة وإلا فنحن أمة من العلماء ورجال الأعمال. لكن أحدًا لا يقدر على الخلاص منه.

جرب أن تحاصر في مصعد في منطقة نائية مع أربعة قتلة، نوبة قلبية توشك على قتلك، بينما تنتظر في الخارج سيارتك التالفة، ومعك صديق ينزف.. جرب الجوال وقتها وقل لي إن كان يعمل أم لا!..

فن إقراض الكتب

لا أعتقد أن أبي يرحمه الله قد أقرض أي كتاب في حياته، ولو فعل فلأنه كان يحتفظ بنسختين من ذات الكتاب.. كان يؤمن أن الكتب أشياء خصوصية جدًا مثل الثياب الداخلية والزوجة وبطاقة الهوية.. لا تصلح إلا لصاحبها ولا يمكن أن تقرضها إلا لو كنت مجنونًا..

كان كذلك يؤمن بأن الأبناء يأتون العالم كي يبددوا الثروات التي تعب الآباء في جمعها، ومن ضمن هذه الثروات الكتب..

لم آخذ كلامه بجدية إلا عندما وقفت أمام مكتبتي التي هي مكتبته مع إضافات قليلة مني، فوجدت أرففًا بأكملها قد خلت من محتوياتها بسبب الإقراض..

معظم الناس يعتبرون أن كلمتي (استعارة) و(أخذ) كلمة واحدة، والتفرقة بينهما نوع من التزيد اللغوي لا مجال له؛ لهذا يقف الواحد من هؤلاء أمام مكتبتي - إذا قرر زيارتي - وتلتمع عيناه بالخاطر الجديد: لقد قرر أن يكون مثقفًا فجأة!. هكذا ينقب بين صفوف الكتب وينتقي هذا الكتاب.. وهذا.. وذاك.. فجأة صار مهتمًا بأدب أمريكا اللاتينية وتاريخ جائزة نوبل والتركيب الإداري لجهاز الموساد وفنون زراعة الأرز في الملايو وعلم السيبرنية.. في النهاية يضطر إلى أن

يستخدم كيسًا من البلاستيك، لدرجة أشعر معها أن الأمر يتعلق بشراء طماطم من السوق لا اقتراض كتب..

-«لا تقلق.. أنا أحافظ على الكتب جيدًا..»

يكررها في كل مرة وهو يتجه لاهثًا إلى الباب حاملاً هذا الكنز ثقيل الوزن..

الآن مر شهر وشهران دون أن يعود أي كتاب.. أتصل به لأقول في خجل إنني أطمئن فقط على كون الكتب راقت له. يتساءل في حيرة: أية كتب؟

في النهاية يتذكر فيبدأ في الرثاء لنفسه لأنه كائن مشغول لا يجد الوقت الكافي ليأكل فما بالك بالقراءة؟.. سوف تعود كتبك.. لا تخف.. أنا أحافظ على الكتب جيدًا..

شهر.. ثلاثة أشهر.. الآن صارت الكتب حقًا مكتسبًا له بحكم القدم، وصرت أنا سمجًا كالبراغيث.. أسأله وأنا أجفف العرق على جبهتي عن مصير الكتب فيهتز ضحكًا، وينظر لي نظرة طويلة ساخرة قاسية.. لقد تغيرت النفوس.. لم يعد الإنسان قادرًا على تحمل أخيه الإنسان..

أشعر بخجل شديد من نفسي لأنني جرحت سلامه النفسي ولأنني متلهف على كتبي إلى هذا الحد، بينما لديه مشاكل لا تنتهي ولا وقت عنده لهذا السخف..

في النهاية يتحول الأمر إلى وغد لحوح - هو أنا - لا يكف عن تسول شيء ليس من حقه. ويحاول صديقي النبيل أن

يعاملني بالحسنى وألا يجرح مشاعري لكنني بصراحة اضغط عليه أكثر من اللازم.. في النهاية ينفجر في:

-«هي مجرد كتب.. و أنت لن تفسد صداقتنا من أجل بضعة كتب.. بصراحة لا أذكر أنني أخذت أية كتب منك ولا أذكر مكانها، لكن هذا لا يكفي كي تجعل حياتي جحيمًا!»

هكذا أتلقى درسًا قاسيًا.. لا تضغط على أعصاب الحليم أكثر من اللازم.. الحق إنني سعيد الحظ لكون هؤلاء العقلاء شديدي الحلم أصدقائي..

مؤخرًا جاءني صديق تم انتدابه للعمل في منطقة صحراوية نائية. صديقي هذا طراز آخر من المقترضين.. هؤلاء الذين يقسمون أغلظ الإيمان على أنهم أعادوا لك الكتب التي اقترضوها وأنت تؤكد العكس.. وبما أنه لا يوجد إثبات وأنت لم تستكتبهم إيصالاً فإنك تبتلع غيظك وتصمت..

قال لي صاحبي متوسلاً:

-«سواء كنت تقبل إقراض الكتب أم لا، فعليك أن تقرضني مجموعة محترمة وإلا قتلني الملل.. أريد مجموعة ممتعة من الروايات..»

رققت لحاله من ثم انتقيت من مكتبتي رواية (إيفانهو) للسير (والتر سكوت)، وحجمها يقرب من حجم دليل هاتف الصين ، وقلت له إنها رواية ممتعة وسوف يقضي معها أسعد الأوقات.

عندما عاد بعد ستة أشهر أخرج لي الرواية من حقيبته، ونظر لي بعينين جاحظتين وقال:

-«إليك روايتك الكابوس!.. لقد قضيت أسود ساعات حياتي معها.. ما لي أنا والفارس النبيل فلان الذي ينتظر في الغابة قدوم الفارس علان ليختبر ولاءه للملك و.. هذه قصة لا تنتهي!..»

قلت له:

-«بالضبط!.. هذا ما قصدته.. لو أقرضتك رواية مسلية لانتهت خلال ثلاثة أيام، بينما هذه الرواية المملة اللعينة تحتاج إلى حكم بالمؤبد كي تنتهي منها.. عرفت أن ستة الأشهر ستنتهي وأنت لم تفرغ من أول مائة صفحة بعد. أضف لهذا أنني أمقتها ولن يشكل فقدها أية خسارة بالنسبة لي..!»

على كل حال لم يبق في مكتبتي إلا الكتب المملة والكئيبة وخامدة الذكر مثل إيفانهو وسواها، لهذا وصلت إلى حالة السلام النفسي ولم يعد أحد يقترض أية كتب مني على الإطلاق.. هل ترغب في اقتراض مجموعة كتب تشرح بالتفصيل تطور صناعة المطاط في فيتنام؟.. لا مشكلة عندي.. خذها متى شئت فأنت صديقي.. أنت أخي..

رجل غير أناني

هـو مـن أكـثر النـاس توتـرًا وخوفًـا مـن المـرض. يتصـل بي خمـس مـرات كل يـوم ليسـأل عـن تلـك العقـد اللمفاويـة الـتي وجدهـا تحـت ذقنـه، أو عـن سـبب عـدم اسـتطالة ظفـر قدمـه اليـسرى ليماثـل اليمـني، أو عـن المـذاق المـر الـذي يشـعر بـه لـدى شرب القهـوة. لـو لـم يجـدني عـلى الهاتـف الأرضي يطلبـني عـلى الجـوال.. فـإن لـم أرد طلـب الجـيران وأوصاهـم بجعـلي أرد. أحيانًـا يفعـل كل هـذا في وقـت واحـد وأقسـم بـالله أنـه فعلهـا.. ولكـم فوجئـت بالجـوال يـرن والهاتـف الأرضي يـرن وجـرس البـاب يـرن، فـلا أعـرف أيهـم أهمـل، فقـط لتخـبرني جـارتي أن فلانًـا يريـدني بإلحـاح.. كيـف يفعـل ذلـك؟.. هـل يطلـب رقمـي بأصابـع قدميـه؟.. أرفـع السـماعة فيصيـح في رعـب:

ـ«أنـت تتجاهـل الهاتـف بينمـا أنـا أحتـضر!!.. منـذ قليـل فـوّت قلـبي ضربـة.. يجـب أن تـأتي لـداري حـالاً!»

هكـذا تعلمـت أن أفـر منـه فـراري مـن الأسـد لأن المصابـين بوسـواس المـرض قـادرون عـلى إصابتـك بالجنـون، عـلى أنـه في ذات يـوم أرسـل لي رسـالة بالبريـد الإلكـتروني تقـول بهـدوء:

ـ«هل توجد علامات مخبرية على التهاب الزائدة؟»

انتظرت بضع ساعات ثم كتبت له أن نعم. بعد ساعات رد علي قائلاً:

-«زوجتي تعاني ألمًا في موضع الزائدة.. أفكر أن أجري لها هذا الاختبار صباحًا..»

قلت له إن هناك مختبرات تعمل طيلة الليل، ثم إن عليه أن يطلب رأي جراح. بعد نصف يوم عاد يسألني بالبريد الالكتروني:

-«إنها تفرغ معدتها مرارًا. هل ترى أنها الزائدة فعلاً؟»

جن جنوني.. وكتبت أقول له إن الزائدة من الطوارئ الطبية.. إما زائدة فعليه أن يهرع للمستشفى، أو لا زائدة فليهدأ ويقر عينًا.. كنت أتوقع أنه فحص زوجته وأجرى لها الاختبارات المعملية اللازمة أمس، لكن هو ذا يوم كامل مر من دون أن يعمل أي شيء..

بعد خمس ساعات كتب لي بالبريد الالكتروني إنه سيجري الفحوص غدًا فقد تأخر الوقت..

هذه المرة رفعت سماعة الهاتف، وانفجرت في سيل من السباب.. أنت توقظني من نومي وتوقظ الجيران ولا تكف عن طلب أي رقم هاتف تعرفه، لمجرد أن سالفك الأيمن ليس بطول الأيسر، والآن قد يكون الأمر خطيرًا لكنك لا تريد أن تتكلف ثمن مكالمة، وقضيت يومًا ونصف اليوم تراسلني بالبريد الالكتروني ولم تفعل أي شيء على الإطلاق..

هـل تعـرف السـبب؟

سألني في حيرة:

ـ«ما هو؟»

قلت في جنون:

ـ«لأن المريـض هـذه المـرة ليـس أنـت.. إنـه شـخص ليـس ذا أهميـة عـلى الإطـلاق.. زوجتـك..»

قال لي :

ـ«فقـط شـعرت ان الأمـر ليـس بهـذه الخطـورة.. لـم أرد أن أجعـل الأمـور دراميـة»

ـ«أنـت تجعلهـا دراميـة جديـرة بشكسـبير عندمـا يتعلـق الأمـر ببقعـة خلـف أذنـك..»

غضـب مـني كثـيرًا واتهمـني بأنـني أتهمـه بالأنانيـة وهـو منهـا بـريء.. لكنـني كنـت أعـرف أنـني محـق في اتهامـاتي. وتأكـدت ظنـوني عندمـا راح جـرس الهاتـف والجـوال وجـرس البـاب يدقون بـلا هـوادة في نفـس الليلـة.. رفعـت السـماعة فسـمعته يـصرخ وهـو موشـك عـلى البـكاء:

ـ«لقـد انتهيـت!!.. كنـت أدخـل الحمـام مرتـين يوميًـا فـصرت أدخلـه مـرة واحـدة.. هـل تعـرف طبيبًـا بارعًـا يجيـد عـلاج سرطـان القولـون؟!!»

سر الصنعة

عندما كنت أعيش وحدي تعلمت الطهي، وأجدته إلى درجة تثير حفيظة نساء كثيرات. المرأة لا تتحمل فكرة أن يستغني عنها الرجل، ثم يجيد عمل شيء أفضل منها. لكن بدأ كل شيء في ذلك اليوم المشئوم الذي عدت فيه للدار حاملاً بعض السمك المشوي، فقابلني جاري الأستاذ (عزام) ومعه زوجته الودود شديدة الظرف والأمومة. لسبب ما تعتقد هذه السيدة الكريمة أن الأعزب في مأزق خطير، ولا مناص من أن يجدوه جثة متعفنة وحده في شقته في أية لحظة. كانت رائحة السمك كافية ليعرفوا أنني أحمل سمكًا.. هنا سألتني الزوجة في ذعر وهي تضرب صدرها:

ـ«مسكين.. هل ستطهو الأرز بنفسك؟»

وسرعان ما كانت تتركنا وتقفز داخل شقتها، ولم يستغرق الأمر سوى ثلث ساعة وسرعان ما وجدت إناء طهي مليئًا بالأرز الساخن يحمله زوجها لي.

أناس ظرفاء.. قلتها لنفسي.. وجلست لآكل لكن يا فرحة ما تمت. اكتشفت أن هذا أسوأ أرز ذقته في حياتي.. عجين كريه مقيت له رائحة خبيثة وفيه أشياء تتحطم تحت أسنانك. هكذا تركت هذا كله وأكملت وجبتي بالخبز، وأنا

أشعر بالحزن لأنني لم أتأخر دقيقة أو أبكر دقيقة.. ما كنت لأقابل الزوجة المتحمسة، ولكنت قد أعددت الأرز الرائع الذي أجيد عمله.

في اليوم التالي قبل موعد الغداء وقبل أن أعد الأرز، ظهر الأستاذ (عزام) حاملاً إناء طهي، وقال لي:

-«زوجتي أقسمت ألا تعد أنت الأرز ما دامت في عروقها حياة.. لو سمحت هات إناء أمس»

لم يكن الأرز أفضل حالاً مما كان أمس.. هذه سياسة متعمدة إذن، وقد شعرت بأزمة ضميرية إزاء هذا الكرم كله.. أنا وغد شرير لا خلاق له، لكن أرز السيدة كريه جدًا كذلك!!!

تخلصت من الأرز في القمامة آسفًا، ونسيت أن جامع القمامة كسول وأن القطط تحب العبث. هكذا في اليوم التالي رأيت السيدة الكريمة على الدرج، وهي تشير إلى كومة من الأرز المطهو المبعثر على مدخل شقتي، وقد خرج كله من كيس ممزق. تسألني بعينين شبه دامعتين:

-«لماذا تخلصت من الأرز في القمامة؟.. هل لم يرق لك؟.. قل الحقيقة..»

بالضبط بالطريقة التي تلوم بها ممثلات السينما الرجال الذين ضيعوا مستقبلهن. أخبرتها بأذنين محمرتين وعينين زائغتين أنني مجنون بالأرز الذي تعده، وأن هذا الأرز في

القمامة هو الأرز الذي أعددته أنا قبل تلقي هديتها. هكذا ابتسمتْ في لطف، ومنذ ذلك اليوم تحولت حياتي لكابوس بسبب إناء الأرز الذي يصل لبيتي كل يوم وقت الغداء. صرت أضع الأرز في كيس داخل كيس وأتسلل في الظلام لأتخلص منه في بقعة مهجورة لا يراني فيها أحد، كأنني قاتل يدفن رأس ضحيته. أطهو الأرز في حذر حتى لا تتبعث رائحة ما أو يدوي صوت أرز يُطهى - لا أعرف ما هو صوته بالضبط لكنها تعرف - فتسمعه هي. ثم أضيفت لواجباتي مهمة غسل إناء الأرز كل يوم وإعادته لها. صرت كذوبًا متسللاً عالمه الظلال والليل، وتعلمت ألا انظر لأحد في عينه حتى لا يدرك أنني أتخلص من الأرز ولا آكله. بينما السيدة الطيبة تكرر في كل مكان:

-«إنه لا يحب سوى الأرز الذي أعده أنا!!»

لم أتخلص من هذا الكابوس إلا بعد أن تزوجت وفارقت البيت، وبعد ما كنت أفكر في الهروب من البلاد أو دخول السجن، لكنها تتصل بزوجتي من حين لآخر تدعونا لزيارتها مؤكدة أنها تنتظرني بالأرز الذي أحبه!!. طلبت منها زوجتي أن تعلمها طريقة عمل هذا الأرز العبقري فقالت في غموض:

-«هذا سر الصنعة يا حبيبتي!!»

صنعة الكلام

تثير إعجابي جدًا الطريقة التي يفسر بها الناس كل ما يحدث لهم؛ بحيث يتبين دومًا أنهم شديدو النقاء والشفافية وعلى حق دائمًا. في مصر يقول المثل الشعبي (النار متحرقش مؤمن) أي أن الأذى لن يصيب المؤمن أبدًا، وهو كلام جميل لو تجاوزنا عن حقيقة أن قائل هذا المثل يتحدث عن نفسه دائمًا. بعد قليل تتمسك النار بكم الرجل أو قميصه، فيقول وهو يدهن مرهم الحروق: (المؤمن منصاب)!

أي أن البلاء يحدث للمؤمن كثيرًا!.. الخلاصة ان الناس لا تصمت أبدًا.. دائمًا هناك تفسير يثبت أنهم رائعون.

كانت زوجة صديقي تؤمن - بلا سبب - أنها نقية نبيلة ترفرف بجناحيها، بينما زوجها - بلا سبب أيضًا - وغد زنيم لابد أنه يمت بصلة قربى لأبي لهب أو أبرهة الأشرم. كل تفكيرها كان يدور في هذا النطاق.. وعندما أصيب زوجها بمغص كلوي ودخل المستشفى لم تستطع أن تخفي علامات التشفي، وقالت لي بصوت مسموع وهي تقف على باب غرفته:

-«الله تعالى يمهل ولا يهمل.. إنه ينتقم لي من هذا الرجل الذي آذاني كثيرًا»

حاولت إقناعها أن المرض يروح ويجيء لأسباب فسيولوجية.. وحتى الصالحين من الرجال يمرضون، وإلا لكانت لدينا قاعدة تقضي بأن كل مريض وغد زنيم.. لكنها قالت في إصرار:

ـ«بل هو انتقام إلهي لي»

شفي زوجها وغادر المستشفى. يبدو أنه لم يكن وغدًا بما يكفي ليموت، وعلى كل حال سوف يساعدها هذا على تكريس قاعدة جديدة لديها؛ هي أن أسوأ الأوغاد طرًا هم الذين لا يموتون بسهولة.

بعد أسبوع اتصلت بي الزوجة لتخبرني أنها تشرب كثيرًا وتبول أكثر. لا تنس أنني طبيب. نصحتها بتحليل الدم لمرض السكري.. بعد أيام عرفت أنها مصابة بالداء فعلاً. بدأت العلاج.. وبعد شهر شعرت بألم في صدرها فذهبت للطبيب الذي أخبرها بأنها مصابة بضيق في الشرايين التاجية..

طبعًا لا داعي لأن أقول إن ذات الطبيب شعر بشيء غريب في ثديها الأيسر ونصحها باستشارة جراح.. الجراح رأى أن هذا الشيء مريب وطلب استئصاله لفحصه فقد يكون ورمًا خبيثًا.

ذهبت لزيارتها في المستشفى فوجدتها مسرورة جدًا.. قالت لي:

ـ«هل رأيت؟.. إن الله تعالى لا يريد لي أن ألقاه بأي ذنب

عـلى كاهـلي، لـذا يخلـص ذنـوبي بهـذه الأمـراض.. إنـه بـلاء والسـبب هـو أنـني شـفافة نقيـة..»

ابتلعت ريقي وقلت في حذر:

ـ«كنـت أحسـب الأشرار فقـط هـم الذيـن يمرضـون حسـب كلامـك.. »

قالت دون أن تعي قصدي:

ـ«هنـاك أشـخاص يمرضـون لأنهـم أوغـاد، وأشـخاص يمرضون لأنهـم ملائكة..»

ـ«وكيف يعرف الإنسان أنه هذا أم ذاك؟»

الإجابـة معروفـة طبعًـا.. لـو كنـت أنـت هـو أنـت فمـن المؤكد أنـك نقـي النفـس رائـع، أمـا لـو كنـت شـخصًا آخـر فهـذا عقـاب سـماوي تسـتحقه بالتأكيد..

جميـل جـدًا.. أحـب هـؤلاء النـاس الذيـن يفهمـون كل شيء ولا توجـد عندهـم أسـئلة مـن أي نـوع. عرفـت فيمـا بعـد أنهـا لا تعـاني ورمًـا خبيثًـا وذهبـت أزف لهـا الأخبـار الطيبـة في التقريـر، فتهلـل وجههـا وقالـت:

ـ«كنـت أعـرف أنـني نقيـة النفس ولا يمكـن أن أصـاب بالسرطان أبدًا»

سألتها وأنا اضغط على أعصابي:

ـ«حسـبت المـرض يطهـرك مـن آثامـك، وأنـت سـعيدة بـه..

دعـك مـن أن معـنى كلامـك أن الأشرار فقـط يصابـون بالسرطـان وهـذا كلام فـارغ»

راحـت تبحـث عـن منطـق يخرسـني فلـم تجـد.. في النهايـة ضـاق صدرهـا وبـدأت تتوتـر، وقالـت لي :

ـ«ألا تجـد مـا يشـغلك في الحيـاة سـوى أن تحـرق دمـي وترفـع معـدلات السـكري لـدي؟»

قلت لها وأنا اخرج من الباب:

ـ«نعـم.. هنـاك أشـياء كثـيرة تشـغلني، ومـن بينهـا كتابـة هـذا المقـال.. يمكنـك كذلـك أن تضيفـي اسـمي إلى قائمـة المصائـب الـتي يجـب أن تواجهيهـا لأنـك شـديدة الطهـر والنقـاء..»

وأغلقـت البـاب قبـل ان تبلغـني السـبة الـتي أطلقتهـا.. فاصطدمـت السـبة بالبـاب وسـقطت عـلى الأرض.

خدمة واحدة فقط

صديق عزيز هو ذلك الشاب المهذب من قرائي، وقد بدأ بدوره ينزوي على نفسه كدودة القز لينسج شرنقته الأدبية الأولى.. هذه لحظة آتية حتمًا لمن يأكل الكثير من ورق التوت. أقصد من يقرأ كثيرًا. في النهاية أرسل لي مجموعته القصصية مع طلب أن أكتب لها المقدمة، وهو شرف عظيم لي..

بعد قليل اتصل بي صديق آخر يطلب أن أكتب له مقدمة ديوانه الشعري. فعلت ذلك بكل سرور، وفي ذات اليوم تلقيت طلبًا لكتابة مقدمة لكتابين من المقالات القصيرة.

الآن أنظر حولي فأكتشف أنني كتبت عشرين مقدمة لكتب بعضها لم أقتنع به قط، وهذا يجعلني متحمسًا للأبد.. أنبهر بجنون بكل كلام مطبوع مهما كان، كأنني (جوتنبرج) نفسه وقد عاد للحياة. هذا ببساطة يجعل المقدمة التي أكتبها بلا قيمة ؛ لأنني موجود في كل مكان، حتى صارت مقدمتي شيئًا يشبه علامة الترقيم الدولي ISBN يصعب أن تفتح كتابًا فلا تجدها.

لكن ماذا عن الاعتذار؟.. هذا وارد، لكن المشكلة هي أنني أعرف ألف واحد.. وكل واحد منهم لم يطلب مني سوى

طلب واحد في حياته كلها.. لم يثقل علي ولم يطلب الكثير معنى القبول أن اكتب ألف مقدمة. إن الرفض فظاظة لا شك فيها، لكني رفضت بعض الطلبات وكرهت نفسي وشعرت بأنني شيطان مغرور متحذلق.

نفس المشكلة تتكرر مع الحوارات الصحفية.. هناك دومًا من يتصل بي ليقول إنهم أصدروا مجلة جديدة أو كونوا جمعية أدبية جديدة، وهم يرغبون في أن يجروا حديثًا صحفيًا معي. هنا أصارحك بسر خطير هو إنني إنسان ممل جدًا وليست لدي أشياء مثيرة تثري الحوار.

هكذا يبدأ الحوار وهو معروف لأنني أجريت مثله ألف مرة: ما علاقة الطب بالأدب؟.. لماذا تحب السخرية في كتاباتك؟.. لماذا لا تتجه لعالم السينما؟..

الردود هي الردود ذاتها. وفي النهاية أجد أنني قلت نفس الكلام في ألف مجلة وأنني موجود أكثر من اللازم، وأنني لو فتحت الثلاجة لوجدت حوارًا معي.. لو فتحت الموقد لوجدت حوارًا آخر..

من جديد تتكرر مشكلة أن كل واحد من هؤلاء الأصدقاء لم يرهقني بالطلبات.. هذا هو الشيء الوحيد الذي طلبه مني في حياته كلها، فكيف أرفضه؟

تذكرت حفل زفافي منذ مائتي عام.. كان الموقف شبيهًا بهذا. هناك فرق تدق الدفوف للعروسين أثناء الموكب وتتقاضى مبلغًا باهظًا، فلو أردت أن تناقش قيل لك إنها

ليلـة واحـدة في العمـر.. فهـل تبخـل عـلى ليلـة كهـذه؟

قاعـة الزفـاف باهظـة الثمـن.. لكـن لا داعـي للمناقشـة لأنهـا ليلـة واحـدة في العمـر.. مـا لـم تكـن عازمًـا عـلى الـزواج بأكـثر مـن واحـدة ، وهـو مـا لـن يخطـر ببالـك طبعًـا وأنـت تنفـق كل هـذا المـال..

هنـاك فرقـة ومطـرب مـشروخ الصـوت.. أجرهـم عـال جـدًا.. لكـن تذكـر أن هـذه ليلـة واحـدة في العمـر فلمـاذا لا تنفـق بسـخاء؟

عندمـا انتهـى الحفـل، تذكـرت أن هـذه أشـياء تحـدث مـرة واحـدة في العمـر بالنسـبة لي، لكنهـا بالنسـبة لهـؤلاء القـوم أسـلوب حيـاة. أي إنهـم يعيشـون وسـط عرسـان ينفقـون بسـخاء لأنهـا مـرة واحـدة في العمـر!

عندمـا يطلـب كل واحـد مـن أصدقائـك طلبًـا واحـدًا فهـو لـن يتكـرر، لكـن هـذه صـارت طريقتـك في الحيـاة وإلى الأبـد..

إمـا أن تقبـل وتتحـول إلى شيء ممـل يـراه النـاس في كل مـكان لدرجـة أنهـم لا يلاحظونـه، أو ترفـض وتقبـل كل الاتهامـات بالفظاظـة والغـرور وقلـة الـذوق.. هـل فهمـت الورطـة الـتي يجـد المـرء نفسـه فيهـا؟

والآن أنهـي هـذا المقـال مـع الشـكر، لأن هنـاك مقدمتـين لكتابـين يجـب أن أفـرغ منهمـا حـالاً!

لأنك رجل متعلم

أنت رجل متعلم يا (صلاح)..

تقرأ كثيرًا وتضع عوينات سميكة، ولا يراك أحد إلا ممسكًا بكتاب سميك عن (إرهاصات ما بعد الحداثة في أدب جويس). يعرف أهل قريتك أنك ظهرت في التلفزيون مرتين، وكان المذيع يكلمك باحترام. في شارعك يعرفون أنك رجل متعلم وأنك حاصل على درجة الدكتوراه في شيء ما.

يقول الناس إن عقلك كبير، لهذا دقت تلك السيدة بابك ذلك المساء لتسألك في احترام:

-«لي أخوان.. واحد ليس من ذات الأم، وهناك بيت توفي أبي وتركه لنا، لكنه أوصى بربع البيت لأخ ثالث ليس من نفس الأم، والأخ باع الجزء لأخي من الأم.. كيف يتم تقسيم هذا الميراث باعتبارك رجلاً مثقفًا؟»

طبعًا لم تفهم شيئًا لذا أوصيتها بأن تسأل خبيرًا في الميراث الشرعي أو مفتيًا. لكنك لم تسترح لنظرة خيبة الأمل في عينها وهي ترحل.

في العاشرة مساء تدق بابك تلك الجارة ومعها طفلتها التي تحولت إلى ثمرة شليك (فراولة) وحرارتها تصلح لإنضاج اللحم. تسألك في جزع عما إذا كانت هذه الحمى القرمزية أم

الحصبة.. تقول لها في ذعر أن عليها أن تطلب رأي طبيب..

ـ«حسبتك سوف تعرف.. فأنت رجل متعلم ومثقف»

إنها تتناسى أو تنسى أن الدكتوراه التي حصلت عليها أنت كانت في علم (معاني الألفاظ) وليس في أمراض الأطفال. تغلق الباب لتكتشف أن صنبور الحمام ينزف الماء بلا انقطاع..

تطلب منك زوجتك أن تستبدل (جلدة) الصنبور، لكنك لم تفعل هذا قط ومن المستحيل أن تفعله الآن.. تسألك زوجتك في شك:

ـ«أنت رجل متعلم وبرغم هذا لا تجيد تغيير جلدة الصنبور؟»

هذا صحيح.. لم يعلموك هذا في كلية الآداب. إنهم مهملون فعلاً.

عندما تزور قريتك يلتف حولك الفلاحون في احترام وإجلال، ويسألونك عن أفضل طريقة لتسميد الذرة، وعن طريقة مكافحة داء صدأ القمح، ويأخذك أحدهم للحقل ليقول لك في حزن:

ـ«هل ترى؟»

تنظر إلى الأرز الذي نما وصار في أفضل حال، فتتساءل عن المشكلة.. الأرز في حال ممتازة..

ـ«لكن هذا ليس أرزًا يا دكتور بل هو كرنب.. بما أنك

متعلـم فقـد حسـبتك تعـرف أنـواع المحاصيـل.. الكرنـب لا ينمـو كمـا ينبغـي..»

تطلـب منـه استشـارة مهنـدس زراعـي فتبـدو عليـه خيبـة الأمـل.. ليكـن..

هنـا يأخـذك أحدهـم ليعـرض عليـك مشـكلته في تقسـيم الأرض، فالحـوض البحـري يتداخـل مـع الطريـق الأسـفلتي ولا يمكـن حسـاب مسـاحة الأرض إلا بطـرح هـذا الشريـط، بينمـا الجـزء القبلـي ترتفـع بـه نسـبة الأمـلاح فما رأيـك؟.. طبعًـا يصاب بذهـول عندمـا يـدرك أنـك لا تفهـم أي شيء عـلى الإطـلاق، ولسـان حالـه يقـول: مـا الـذي يعلمونـه لهـم في المـدارس إذن؟

عندمـا تعـود للمدينـة وتديـر محـرك سـيارتك تجـد أنـه لا يـدور.. تجلـب الميكانيـكي فيفحـص السـيارة ثـم يأخـذ رأيـك:

ـ«هـل تـرى أن نقـوم بتنظيـف التاكيهـات أم نقـوم باسـتبدال بيـك السيلنسـيه؟»

ـ«يـا أخـي القـرار لـك.. لـو كنـت أعـرف لفعلـت بنفـسي ولمـا طلبتـك»

ـ«أنـت رجـل مثقـف ومتعلـم لهـذا أسـتأنس برأيـك.. أنـا حـرفي جاهـل يعتمـد عـلى حدسـه لا عـلى العلـم»

ـ«قم بتنظيف التاكيهات..»

ـ«هـذه مشـكلة.. إن بيـك السيلنسـيه في حـال سـيئة.. كنـت أحسـبك سـتطلب اسـتبداله»

يـزداد الأمـر سـوءًا عندمـا يطلـب موظـف مخـضرم رأيـك في مشـكلة إداريـة:

ـ«المـادة ٧٦ مـن قانـون العاملـين تحتـم وجـود لجنـة مـن أعضـاء مجلـس الإدارة للبـت في التظلمـات قبـل نهايـة السـنة الماليـة، بينمـا تتعـارض معهـا المـادة ٨١ الـتي تمنـع ذلـك.. لـو إنـني تمسـكت بالمـادة ٨١ سـوف يكـون بوسـعي رفـع قضيـة مضمونـة الفـوز عـلى الوزيـر شـخصيًا، لكـن هـل تضمـن لي ألا يسـتغل المـادة ١١٧ الـتي تمنحـه صلاحيـة البـت في قـرارات اللجـان؟»

ـ«لا أدري..»

ـ«هذا غريب. حسبت أنك ستفيدني بما أنك رجل مثقف..»

في النهايـة تـدرك أنـك رجـل مثقـف لكـن مـا تعرفـه لا يهـم أحـدًا عـلى الإطـلاق، ولا يصلـح البتـة لممارسـة الحيـاة شـديدة التعقيـد. أنـت كخبـير مفاعـلات نوويـة في مصنـع عطـور.. علمك لا قيمـة لـه هنـا ولا أحـد يريـده..

تصـاب باكتئـاب شـديد حـتى عندمـا يقصـدك هـذا الشـاب ليسـألك عـن شيء، فتقـول لـه في حـدة:

ـ«لا أعـرف.. لا أملـك أيـة خـبرة تسـمح لي بالإجابـة عـن هـذا السـؤال..»

هنا يقول الشاب في حيرة وهو يجمع أوراقه وينصرف:

ـ«كنـت أريـد سـؤالك عـن إرهاصـات مـا بعـد الحداثـة في أدب

جويـس. غريـب هـذا.. حسـبت أن الإجابـة عنـدك يـا سـيدي بمـا أنـك رجـل مثقـف!»

البنسات الثلاثة

عرض علي صديقي (مراد) أن أقرأ رائعة برخت (البنسات الثلاثة) التي تعرض كثيرًا باسم (أوبرا الشحاتين)، فلم أتحمس للأمر كثيرًا. وعدته بأن أفعل لكني نسيت الوعد بعد ثلاث دقائق، وقد تكرر هذا كثيرًا.

ذات يوم اتصل بي (مراد) ليخبرني بأنه في ورطة. هناك مجموعة من الجداول يبغي تنسيقها وهو لا يجيد هذه الأعمال التي تحتاج إلى دقة. إنه أخرق ومواهبه شبه معدومة، ثم انخرط في وصلة من سباب النفس حتى كاد يبكي:

ـ«أنا معدوم المواهب ضعيف القدرات.. من المعجزات الحقيقية أن يظل من هو على شاكلتي حيًا حتى سن الأربعين..»

ضحكت كثيرًا وذهبت لبيته، وجلست أشرب الشاي وأنسق هذه الجداول التي لا تنتهي. بعد قليل جاء صديق آخر اسمه (كمال).. قال لي مراد:

ـ«إن صديقنا (كمال) مترجم وإنجليزيته لا تختلف عن إنجليزية (تشرشل)، لذا طلبت منه أن يساعدني في ترجمة هذا النص.. تبًا لي ولإنجليزيتي.. إن الكناس الذي يكنس الشارع

يجيد الإنجليزية أفضل مني..»

وجلس كمال ممسكًا بكتاب سميك وراح يكتب الترجمة في مفكرة صغيرة. هنا نظر لي مراد متسائلاً:

ـ«هل خطك جميل؟.. أريد تبييض هذه الترجمة، لكن خطي قبيح جدًا..»

اعتذرت بأن خطي سيئ، هكذا قرر أن يطلب معونة صديق له يدرس في مدرسة الخطوط.

بعد يومين اتصل بي مراد وسألني عن عرض تقديمي للكمبيوتر يتحدث عن معدلات البطالة في العالم العربي، فقلت إنني لا أملك واحدًا. وطلبت منه أن يبحث في شبكة الإنترنت عن معلومات معقولة ثم يعد عرضًا تقديميًا..

ـ«هل يمكنك عمل ذلك؟.. أنا لا أجيد البحث في شبكة الإنترنت كما تعلم..»

هكذا جلست أمام جهاز الكمبيوتر ورحت أبحث عن معلومات عن البطالة في العالم العربي وأرسلتها له. بعد قليل اتصل بي يقول:

ـ«وماذا عن العرض التقديمي؟.. أنا لا أجيد عمل هذه العروض.»

لا بأس.. هذا صديق في ورطة وعلي أن أساعده.. جلست وأعددت له عرضًا تقديميًا لا بأس به وأرسلته له، فاتصل بي بعد دقائق ملهوفًا وقال:

ـ«لا أستطيع فتح الملف.. أرجو أن تعد لي العرض على أسطوانة ولسوف آتي لآخذه»

بعد نصف ساعة جاء لداري فطلب مني أن أقوم بحذف الشريحة الثالثة والسابعة لأنهما غير مناسبتين. هنا قلت له في شك:

ـ«ألم تقل إنك لم تستطع فتح العرض؟.»

ـ«بلى.. لكني أرجو أن تحذف هاتين الشريحتين»

هكذا جلست أمام جهازي وحذفت ما طلب، هنا قال لي بلهجة متوسلة:

ـ«الوقت ضيق وعلي أن أقدم هذا العرض غدًا.. أنت أعددت أربعين شريحة فلا تحسب أنني قادر على استيعابها..»

قلت في غيظ:

ـ«لا أظنك ستطلب مني أن أقدم هذا العرض بنفسي كذلك»

ـ«وددت لو فعلت، لكني أطمع في أن تلخصه لي في ورقة واحدة أطالعها قبل النوم..»

قمت بما فعل. وعرفت فيما بعد أنه اتصل بصديق له خبير في الكمبيوتر كي يجري تعديلات مهمة على العرض، كما قام بإدخال مؤثرات مبهرة وأعمدة تتحرك.. الخ..

بعد يومين اتصل بصديق لنا مهندس، وطلب منه أن يساعده في إصلاح السيارة لأن خللاً غامضًا أصابها وهو لا يفقه شيئًا في الميكانيكا. قال له إنه بلا مواهب ولا قدرات، وإنه مندهش لأنه ظل حيًا حتى هذه السن.. ضحك صديقنا المهندس وهرع يلحق به ليقضي يومًا كاملاً مع السيارة.

بينما كان المهندس يغسل يديه في الحمام أخذ مراد رأيه في صنبور المغطس الذي يخلط الماء الساخن بالبارد حتى لو لم ترد ذلك، هكذا وجد صديقنا نفسه واقفًا في المغطس ممسكًا بمفتاح في يده يحاول إصلاح الصنبور..

هنا خطر لي خاطر مفاجئ.. صديقي هذا ليس معدوم المواهب بل هو عبقري.. إنه يملك موهبة السمسار أو مقاول الأنفار أو منتج السينما. يعرف كيف يأخذ من كل إنسان أفضل ما فيه، وفي النهاية هو لا يدفع شيئًا سوى بعض السباب لنفسه وعبارات الشكر لصاحبه. لسبب ما قررت أن أقرأ (البنسات الثلاثة) كما طلب مني مرارًا.. قرأتها فوجدتها تحكي في نهايتها كيف أن كل إنسان في الأرض جاء الدنيا ومعه ثلاثة بنسات.. بنسات الثري الثلاثة هي الفقراء. إنهم رأس ماله.. يعتصرهم ويأخذ منهم ما يشاء ليزداد ثراء.. لابد أن هذه القصة أثرت في صديقي كثيرًا. بنسات مراد الثلاثة هي نحن.. أصدقاؤه.. وهو يعرف جيدًا كيف يعتصرنا وكيف يأخذ منا كل شيء مقابل بعض عبارات الامتنان.

طريقك إلى النجاح

أعترف أن أهم تقدم حققته الطباعة في تاريخها هو سلسلة الكتب التي تعلمك كيف تنجح في الحياة. بدأ الأمر في طفولتي بكتاب (ديل كارنيجي) الشهير (دع القلق واستمتع بالحياة)، ولعله أشهر الكتب غير السماوية وأكثرها توزيعًا. ثم انهالت الكتب المماثلةعلى رءوسنا، ومؤخرًا صارت هناك موضة اسمها (التنمية البشرية) و(البرمجة اللغوية الحركية).. لا.. (البرمجة اللغوية العصبية).. لن أستطيع أبدًا ذكر اسمها بشكل صحيح، ولهذا أكتفي بالاختصار NLP..

العالم كله مهتم بهذا الموضوع باستثنائي.. لابد أن تقابل هذا الصديق أو ذاك ذاهبًا لحضور محاضرة في هذا الشأن، أو تلقاه ذاهبًا لإلقاء محاضرة عنها.. يسألونني: ألست مشتركًا في دورة من هذا النوع؟.. فأقول أن لا.. ينظرون لي في دهشة وحيرة.. لهذا السبب أنا أسمر مجعد شعر الرأس، لي كرش وثقيل الظل.. لهذا السبب فشلت في حياتي فلم أمتلك عدة قصور في باريس ولندن.. لهذا السبب لم أتزوج (مونيكا بلوشي) أو على الأقل (أليسا).. لهذا السبب أمرض وسوف أموت.. لأنني لم أدرس هذا العلم مثلهم..

هناك كتاب شاع بين الشباب مؤخرًا ولن أذكر اسمه حتى لا تكون دعاية له، لكنهم قالوا إن كل أسرار النجاح موجودة

فيه.. قرأت عرضًا لهذا الكتاب فوجدت مؤلفته تقول : «يجب أن تجد سر النجاح في نفسك.. أنت كذلك يمكنك أن تنجح..»

كلام جميل جدًا، لكن منذ متى لم أقرأ هذه الكلمات في كل الكتب المماثلة منذ كنت في المدرسة الابتدائية؟.. باختصار: أنا كسول جدًا ولا أبحث في نفسي بما يكفي.. لربما أجد عالم ذرة هنا أو عالمًا فلكيًا هناك.. لربما لو بحثت في فروة رأسي جيدًا لوجدت موسيقارًا عالميًا.. صدقني أنا بحثت كثيرًا جدًا في سن التاسعة عن بذور النجاح، ووقفت أمام المرآة وطلبت من أمي أن تفتش فلم تجد شيئًا..

فشلت تمامًا في أن أجد في نفسي بذور النجاح التي تحدثت عنها المؤلفة، لكن كل مؤلفي هذه القصص يصرون على أن الأمر سهل.. كل ما عليك هو أن تدرس كيف نجح الآخرون، ثم تصير مثلهم.. كل ما علي هو أن أمتلك أصابع وأذن (موتسارت) أو خلايا مخ (أينشتاين) أو براعة (أنتوني كوين) في التمثيل ، ولسوف أصير رائعًا..

كما قلت أنا أقرأ هذه الكتب منذ أربعين عامًا، فمن الذي نجح بعد قراءتها؟ للأسف لا أذكر مثالاً واضحًا.. هل هناك طبيب لامع أو مهندس موهوب أو موسيقار عبقري أو أديب شهير قال إنه مدين لهذه الكتب بما هو فيه؟.. فقط أعرف أن (ديل كارنيجي) نجح.. كتاب (العادات السبع للأشخاص الأكثر فعالية) حصد مؤلفه ستيفن كافي الملايين.. مبتكرا البرمجة العصبية اللغوية حصدا المليارات.. إذن طريقة النجاح بهذه الكتب هو أن تؤلف كتابًا وتعطي دورات عن

طريقة النجاح.. هكذا تنجح فعلاً.. هؤلاء المؤلفون بحثوا عن بذور النجاح في أنفسهم ووجدوها..

هكذا قررت أن أبتكر مدرستي الخاصة للنجاح.. سوف أؤسس مدرسة اسمها (الخارطة الجينية للنجاح). وسوف أعطي محاضرات في كل أرجاء العالم العربي بسعر ٣٠٠ دولار للفرد.. سوف أعلن أنني حاصل على دكتوراه من جامعة (برختسجادن) وأدعو الله أن تكون هناك جامعة في برختسجادن فعلاً. طريقتي تقضي بالتالي:

١- كل واحد يمكن أن ينجح

٢- النجاح ليس هو الهدف بل النجاح هو الأسلوب

٣- أقصر طريق للنجاح هو أن تكتب كتابًا عن أقصر طريق له.

هل فهمت شيئًا؟.. لا؟.. لأنك لم تتلق الدورة ولم تدفع 300 دولار، فلا تتوقع أن أشرح لك هذه الطريقة المعقدة في هذا المقال القصير. سوف يكون هناك كتاب سميك مليء بصور ملونة بها أسهم وخرائط تدفق معلومات.. الخ.. يمكنك أن تشتريه كذلك. لكن هل يوجد ملحق ثقافي لبرختسجادن في بلادنا؟.. بما أنني منحوس فعلي أن أتأكد من أن برختسجادن لن ترفع علي قضية.. وبهذا أكون قد فشلت قبل أن أبدأ!!

أنا شديد الأهمية

شعور طبيعي هو أن تحتاج لأن تحس بالأهمية.. إنه ذلك الشعور اللذيذ بأن الكون سوف يتوقف عن الدوران من دوننا وأن الشهب ستخترق الغلاف الجوي، وأن فيضان النيل سيتوقف..

الأمهات جميعًا - كمثال - يملكن رغبة كاسحة في التدخل في كل شيء يخص أطفالهن.. لا تقبل الأم أن يمارس الابن حياة هي ليست فيها. من دونها سوف يتحول الطفل إلى لحم مفروم تذروه الريح، أو إن كان حسن الحظ يتحول إلى سفاح أو لص.. معظم الأمهات يشعرن بضيق خفي لو سافرن وعدن فوجدن أن أبناءهن بخير.. هن لا يقلن هذا صراحة، لكنك ترى لمسة خيبة أمل على وجوههن.

ـ«هل رتبت غرفتك وغسلت وجهك وواظبت على الصلاة؟»

ـ«نعم»

عندها توشك على الجنون، وتبحث وتبحث إلى أن تجد كدمة صغيرة بحجم رأس الدبوس خلف أذنه، فتصيح في انتصار لائمة الأب أو الخال أو العمة:

ـ«لقد آذى نفسه..!.. كنت أعرف أنك ستفسد الأمور في غيابي.. هذا الصغير لا يستطيع الحياة لحظة واحدة من

دوني.. ولو لم أعد في الوقت المناسب لذهبت لأراه في العناية المركزة بالمستشفى!»

نفس الشيء ينطبق على المديرين الذين يتغيبون عن العمل لبضعة أيام، ثم يستشيطون غيظًا عندما يكتشفون أن كل شيء كان يسير بدقة الساعة في غيابهم.. هذا يثير جنونهم.. لا يرضيهم إلا أن يعودوا ليجدوا أن الخراب عم كل شيء.. إن انتظام العمل ودقته إهانتان قويتان لهم.. معنى هذا أنه لا لزوم لهم وأنهم يتقاضون رواتبهم على سبيل الصدقة.

من الأشياء الأخرى التي تثير جنوني أمثال الموقف التالي: في عملي يكلفوني بتصميم جدول شهري بالغ التعقيد على جهاز الكمبيوتر، يستغرق مني ثلاثة أيام تقريبًا. جاء اليوم الذي ثرت فيه وتمردت وأعلنت أني لن أصمم هذا الجدول ثانية لأن هذا ليس عملي.. قبل المدير الأمر بسهولة أثارت دهشتي.. ظللت أنتظر نتيجة هذا التمرد الذي قمت به فلم يحدث شيء.. لم يهتز العالم ولم تسقط الإدارة، ثم عرفت أن زميلاً لي كلف بهذه المهمة.. سألته عما إذا كان قد أنجزها، فقال بلا مبالاة:

ـ«بالطبع.. استغرق الأمر ساعتين لكن النتيجة ممتازة!»

وهكذا استمر زميلي في تصميم الجدول شهريًا بلا مشاكل من أي نوع. معنى هذا أني كاذب مدلل عندما كنت أزعم أن هذا الجدول يكلفني ما لا أطيق، أو أنا أحمق..

نعـم.. نحتـاج أحيانًـا للشـعور بأننـا مهمـون جـدًا.. فهـذا هـو المـبرر الوحيـد لنـا كي ننظـر في المرايـا ونـرى أنفسـنا!

ألزايمر مصغر

في العام ١٩٠٧ وصف الطبيب الألماني (آلوا ألزايمر) مرضًا غريبًا يؤكد وجهة نظره في أن الجنون والنسيان مرضان كيميائيان. وصف حالة امرأة شابة لا تعاني خرف الشيخوخة لكنها بدأت تجد عسراً بالغًا في تذكر الماضي والأحداث القريبة والوجوه.. ثم صار انتقاؤها للكلمات أصعب، وصار من العسير أن تذكر كيف تلبس ثيابها أو تغسل وجهها.. أضف لهذا بعض التصرفات الاجتماعية غير اللائقة.. وبعد موت المرأة وجد علامات مميزة للشيخوخة في المخ. هكذا عرف العلم اسم داء (ألزايمر) الذي يصر كل إنسان على أنه مصاب به، ويصر كذلك على أن (ال) في بداية الاسم أداة تعريف، لذا يقول لك في ثقة: «أنا مصاب بزهايمر شديد».

لا أعتقد أن الأمور بلغت معي هذه الشدة، فما زلت أذكر عنوان بيتي وأذكر أنني متزوج وأب (برغم أن نسيان هذا قد يكون لطيفًا أحيانًا)، لكن فيما عدا هذا لا يمكن القول إن ذاكرتي على ما يرام..

مئات الأفكار تتوارد على ذهني طيلة اليوم.. تتواثب كالبراغيث بلا توقف.. بعضها رائع فعلاً.. أنتهي من هذه المكالمة الهاتفية أو تلك أو أفرغ من هذه الوجبة، ثم أحضر مفكرتي الصغيرة وآخذ نفسًا عميقًا لأدون هذه

الفكرة.. أية فكرة؟.. لقد تبخرت تمامًا.. أحاول أن استرجع الخيط بالمقلوب فلا أفلح في أن أجد الخيط ذاته..

لقد نسيت الفكرة.. أية فكرة؟.. نسيتها.. بعد نصف ساعة أنسى تمامًا أنني نسيت..

المشكلة تزداد سوءًا مع الأحلام. يبدو أنني كنت أحمل بذرة عبقري من طراز (إلياس هاو) أو (كولردج) ممن يجدون أفضل الأفكار أثناء النوم، لكني فقدت هذه البذرة للأسف في ظروف غامضة.. أصحو من نومي منبهرًا متلاحق الأنفاس وأمسك بالقلم لأدون هذا الحلم الذي رأيته.. أي حلم؟..

عندما يتكلم صاحبي أجد تعليقات مهمة جدًا وممتعة جدًا على كلامه، لكنه للأسف ممن يثرثرون.. هكذا اصغي له في صبر.. في النهاية يسألني عن رأيي فأقول في يأس: نسيت!. طبعًا لن أحدثك عن وقفتي البلهاء في السوبر ماركت أحاول تذكر لماذا دخلته.. عشرات العمال يسألونني عما أريد فأهز رأسي. أبتاع لحمًا وجبنًا وخبزًا ومنظفات وسجائر وخضرًا ومعطر جو.. ثم أعود للبيت لتسألني زوجتي: «هل تذكرت شراء الملح كما طلبت منك؟»

هذا المقال ليس مخصصًا للسخرية، بل هو يهدف لشيء مهم جدًا.. هذا الشيء هو... هو.. نسيت طبعًا.. أكرر اعتذاري وأتمنى لك يومًا سعيدًا..

إيهام

يجلس الرجل جواري في سيارة الأجرة، والتي تقطع أحد شوارع القاهرة المزدحمة.. يمسك بشطيرة مليئة باللحم، والدهن يوشك على أن يسيل منها ليغرقنا جميعًا حتى الأعناق. يقضم منها في كفاءة يحسد عليها.

هنا يدق جرس الهاتف المحمول فيمد يده الملوثة بحذر ليلتقطه.. ثم تسمع المحادثة:

ـ«نعم.. نعم.. أنا في الطريق.. منذ قلت لي هذه الكلمات القاسية وأنا لا أنام ولا آكل.. أقسم أنني لم أذق طعم الزاد منذ ثلاثة أيام»

ويمسح قطرات الدهن على شفته السفلى، وينظر لي بعين نارية مهددة.. الويل لمن يعترض. لكني فعلاً معجب بشهية هذا الذي لا يذوق طعم الزاد.. إنه يواصل الكلام:

ـ«أنا في الإسكندرية.. أقسم أنني في شارع صفية زغلول.. سوف أكون عندك خلال ثلاث دقائق.. لا تقلقي أبدًا..»

أنظر إلى شوارع القاهرة المحيطة بنا وأتنهد.. هو رجل دقيق كذلك.. في الإسكندرية وفي شارع صفية زغلول. ترى هل هي زوجة غاضبة أم شريكة عمل تطالب بمستحقاتها

المالية؟.. وماذا ستقول عندما تكتشف أنه لن يكون عندها بعد ثلاث دقائق ما لم يطر في الهواء طبعًا؟

ينهي الرجل المكالمة ويلا أدنى ذرة من التردد يواصل التهام الشطيرة الدسمة. خطر لي أنه يتمتع بضمير صاف فعلاً.. كل هذا الكذب وأمام شهود يعرفون كم هو كاذب، وهو يملك صفاقة تسمح له بأن يغرس أصابعه في عيوننا لو اعترضنا..

لقد رأيت موقف الكذب على الهاتف هذا كثيرًا، وفي آخر مرة كان الفتى يكلم حبيبته على الهاتف وهو يمسك بيد حبيبته الأخرى!.. أعتقد أن الهاتف الذي ينقل صورة المتكلم سوف يجلب متاعب عديدة على أمثال محترفي الكذب هؤلاء، لكني لن اندهش لو ظهرت تقنيات كذب جديدة تناسب الموقف.. سوف تباع خلفيات جدارية تمثل شوارع الإسكندرية ليلصقها وراءه أثناء الكلام، وسوف يكون هناك ممثلون يقومون بدور باعة الكورنيش في الإسكندرية، ولربما تدخل المخرجون ليستعملوا حيل الكروما بحيث تبدو أمواج البحر حية يقظة وراء ظهره.. وسيكون هناك فنانو ماكياج يضيفون على ملامحه لمسات تجعله يبدو مرهقًا مسهدًا ناحلاً.

إن الكذب يتطور مع الزمن ليتحول إلى فن من الفنون الراقية، وعلينا أن نفهم هذا قبل فوات الأوان!

حياة ضاعت

فنانون رائعون هم أولئك الذين يقومون بتأليف ورسم مغامرات (دونالد دك) التي تنتجها شركة ديزني، ومن الغريب أن أهمهم كوبيون وليسوا أمريكيين أو أوروبيين. بالنسبة لنا معشر العرب ليس (دونالد) سوى بطوط البطة المشاغبة الغيور العصبية الظريفة. في إحدى تلك القصص التي تقترب من الأعمال الفلسفية الراقية، ينتقل بطوط لعالم مواز غريب.. في هذا العالم يكتشف كرة.. يكتشف حذاء قديمًا.. يكتشف قطة صغيرة.. كلها أشياء ضاعت منه في طفولته ولم يجدها قط. وهنا يدرك الحقيقة.. هذا العالم العجيب هو العالم الذي تختفي فيه تلك الأشياء التي ضاعت منا ولم نجدها!.. حتى الجوارب التي تضيع في الغسالة فلا تجد سوى فردة واحدة منها موجودة في هذا العالم!

تأمل روعة هذه الفكرة.. تأمل ما فيها من إمكانات ساحرة..

عندما أفكر في وجود عالم كهذا، أتذكر على الفور أنني سأجد فيه مليونًا من الجنيهات.. كل الجنيهات التي ضاعت مني في المدرسة ولم أجدها. هناك بالتأكيد مليون قلم ومليون مسطرة.. هناك أكثر من بطاقة هوية ورخصة قيادة سيارة.. هناك جبل من المفاتيح..

هناك فتاة رقيقة حزينة العينين قالت إنها تحبني ثم اختفت للأبد، وقيل إن أهلها هاجروا إلى أستراليا، لكنها بالنسبة لي ضاعت في ذلك العالم الذي لا يعود منه أحد..

ولماذا أكون ضيق الأفق؟.. هناك جبل من الأحلام في ذلك العالم.. هناك نهر جار من القصائد التي بدأتها ثم نسيت أمرها ولم أجد الأوراق التي دونت عليها البيت الأول.. حياة كاملة ضاعت مني.. وسوف أجدها في ذلك المكان.. إن الأمر يتجاوز بكثير العثور على بعض الكرات وبعض الأقلام الضائعة.. حتى هذا المقال القصير كتبته بشكل أفضل، ثم نسفه الكمبيوتر نسفًا.. لابد أنني سأجد المقال الأول الأفضل هناك..

وماذا عن ذلك الصبي المرح المليء بالحماسة والذي يريد أن يعرف كل شيء ويفهم كل شيء ويصير كل شيء؟.. إنه أنا.. سوف أجده هناك بالتأكيد في ذلك العالم السحري.. فقط دلوني عليه..

إنبهر مرة واحدة!

قالت لي زوجتي إنني و(مختار) طفلان يفتقران للنضج، لكني لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في استفزازه.. المشكلة هي إنك بحاجة دائمة إلى شخص يندهش أو يصغي لتجاربك الغريبة باعتبارها تجارب غريبة. لكن الشخص الذي يؤكد دائمًا أنه رأى ما هو أغرب شخص يثير الأعصاب فعلاً. لا أقرأ ألف ليلة وليلة عندما تقول شهرزاد: «وما هي بأغرب من قصة الحمال والفتيات الثلاث.. الخ« إلا وأتذكر (مختار). هذه كلمة جديرة به.

أحكي له عن السيارة التي انقلبت بي من على الجسر فسقطت فوق شاحنة، من ثم قذفها الاندفاع إلى أعلى لتصطدم بأسلاك الكهرباء، وهذه الأسلاك حملتها إلى الترعة حيث جرفتها الأمواج واصطدمت بمركب، فطارت ثانية لتستقر على عجلاتها. فيهز رأسه في حنكة ويقول: «ما حدث لي أغرب.. لقد طارت سيارتي لتصدم طائرة وهذه الطائرة حملتها إلى بلد آخر، ثم جاء طبق طائر أعادني إلى نفس الموضع الذي كنت فيه«

أقول له إنني أحتفظ بإصبع من يد (جيفارا) فيؤكد لي أن عنده باقي اليد. هكذا أضطر إلى التمادي والمبالغة إلى درجة أنني تحولت إلى كذاب كامل النضج لا ينقصه شيء..

أنـا أعـرف هـذا الطـراز مـن البـشر الذيـن أقسـموا عـلى ألا يندهشـوا أبـدًا أو يبـدوا الانبهـار. إنهـم يعتـبرون إبـداء الدهشـة لقصـة طريفـة نوعًـا مـن العيـب المشـين. إنـه نفـس الطـراز مـن البـشر الذيـن يعلمـون بواطـن الأمـور ومـا لا تعلمـه أنـت. سـوف تحـكي لهـم عـن الغواصـة الإسرائيليـة الـتي وجدتهـا تحـت السـلم، فيهـزون الـرءوس ويبتسـمون في شـفقة ويقولـون:

ـ«هـذا لا شيء.. أنـت لا تفهـم.. إن هـذه الغواصـات موجـودة تحـت كل سـلم في البـلاد..»

أمـا عندمـا يحـكي لي شـبنًّا غريبًـا فإنـني أنـسى نفـسي وأنـسى غريـزة الانتقـام. تفلـت مـني صيحـات الدهشـة وتظهـر عـلى وجهـي أمـارات الذهـول.

الحقيقـة أنـني أفكـر في قتلـه كثـيرًا.. هـذا هـو الحـل الوحيـد مـع شـخص لا يندهـش كهـذا.. شـخص يشـعرك بأنـك طفـل سـاذج لـم يـر شـيئًا بعـد.. وممـل كذلـك. لكـن هـؤلاء القـوم يملكـون هـم أنفسـهم نوعًـا مـن الطفولـة الواضحـة، فهـذا هـو تفاخـر الأطفـال مـن طـراز (أبي عنـده دراجـة بخاريـة وأبـوك ليـس عنـده شيء). قلـت هـذا لزوجـتي فقالـت:

ـ«وكذلك الأطفال هم من يغتاظون من تفاخر الأطفال!»

لـم أفهـم معـنى هـذه العبـارة الملتفـة، لكـني أعـرف جيـدًا أنـني سـأغيظ (مختـار) يومًـا مـا بمعلومـة تثـير دهشـته وذهولـه. فقـط أدعـو الله أن يندهـش قبـل أن أضطـر لقتلـه.

فن التسخيف

خيط واه جدًا يفصل بين المعنى العميق والسخف.. من مصلحتنا جميعًا ترك هذا الخيط حيث هو، فلو انقطع لفسد الكثير. كنت أتابع باهتمام برامج قناة الجزيرة الساخنة مثل (الاتجاه المعاكس) وأنفعل مع من ينفعل وأصرخ مع من يصرخ، حتى قالت زوجتي ذات مرة في ملل:

ـ«هؤلاء القوم يعانون من فراغ قاتل.. لا مشاكل عندهم!.. يجلسون معًا ليبدءوا في الصراخ لمدة ساعة ثم يعود كل منهم لوطنه..»

قلت لها في حماسة إن هذا صراع أفكار ساخن من أعلى طراز، لكنها كانت مصرة على أن الواحد من هؤلاء لو كان مكلفًا بالطهي وتنظيف بيت والعناية بأطفال لما وجد وقتًا لهذا الهراء. من الغريب أن كلامها بدأ يقطع هذا الخيط الواهي، وبدأت أشعر بالفعل أن هؤلاء قوم يأتون ليفتعلوا الصراخ، وليتسلى المشاهد بهذه المصارعة الحرة الفكرية لا أكثر.

كنت أشاهد فيلم رعب مثيرًا عندما سألني ابني عن موضوعه، فقلت في حماسة: «هناك دير لا يمارس رهبانه المسيحية، ولكنهم يمارسون عبادة الشيطان.. والبطلة راهبة

جديـدة لا تعـرف مـا يحـدث»

قال في ملل:

ـ«ومـا المثـير في ذلـك؟.. سـوف تكتشـف الـسر وتصـاب بالرعـب.. تحـاول الهـرب فيلاحقونهـا وفي النهايـة تنجـوا!»

بـدا لي كلامـه معقـولاً وبـدأت أرى أن الفيلـم ليـس بهـذه الروعـة عـلى الإطـلاق. لقـد نجـح الوغـد ببراعـة في قطـع الخيـط الواهـي فبـدا الأمـر عـلى حقيقتـه: هـراء..

لـو امتلكـت موهبـة التسـخيف هـذه لبـدا لـك أي شـاعر شـخصًا مدعيًـا يقـول كلامًـا مفتعـلاً لا معـنى لـه، والزهـرة الـتي تقدمهـا لحبيبتـك تفاهـة، ولبـدا لـك السياسـيون نصابـين يبيعـون كلامًـا.. إن روايـة الحـرب والسـلام هـي ببسـاطة قصـة محاولـة نابليـون لاحتـلال روسـيا وفشـله، بينمـا (شـفرة دافنـشي) هـي شـخص مـات وتـرك بعـض الألغـاز الـتي يتـم حلهـا. قديمًـا وصـف أحدهـم فيلـم (الفـك المفـترس) بأنـه فيلـم تسـجيلي عـن صيـد سـمك القـرش!..

موهبـة التسـخيف هـي الطريـق الأمثـل للانتحـار، وهـي قـادرة عـلى جعـل الحيـاة بـلا معـنى فعـلاً. هـل تذكـر قصـة الرجـل الـذي أهـدى أمـه ببغـاء متكلمًـا باهـظ الثمـن، ثـم اتصـل بهـا بعـد أسـبوع ليطمـئن عـلى الببغـاء فقالـت بلهجـة عمليـة: لقـد كان لذيـذًا!

علينـا أن نبقـي هـذا الخيـط الرفيـع ولا نقطعـه كي نجـد مـبررًا

لحياتنا. ولهذا أتوقع منك أن تجد هذا المقال ساخرًا ممتعًا وعلى شيء من العمق، بدلاً من أن تعتبره مجرد هلوسة من شخص لا يجد شيئًا أهم يفعله. هذا يحفظ السلام النفسي لنا معًا.

من أجل مزيد من الجودة

هناك وباء جديد لا يختلف عن إنفلونزا الخنازير في الفتك ولا سرعة الانتشار، وقد راح يجتاح كل هيئة وكل مؤسسة وكل هيئة علمية، وهذا الوباء اسمه (ضمان الجودة). هناك دائمًا منحة من الاتحاد الأوروبي وهناك أشخاص مهمون جدًا يتقاضى الواحد منهم في الشهر ما تتقاضاه أنت طيلة حياتك، وهناك كتيبات وهناك دورات لابد من حضورها لتنام فيها وإلا خربوا بيتك.. حتى تشعر بأن الأمر يتعلق بتجربة نوع جديد من أساليب النوم. وهناك برامج من الخارج تحمل أسماء طويلة مثل ZEFT و HEBAB وهناك تهديد دائم بأنه لا مزيد من الغداء المجاني، وأن الفرصة متاحة كي تُطرد ويجوع أطفالك.

المشكلة أنني لا أجد أثرًا لهذا على أرض الواقع. هناك ضوضاء ودخان كثيران جدًا، لكنك لا تجد أي نار ولا أي طحن. هذا الوباء له علاقة جينية بابن عم قريب له هو التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية.. كلهم جاءوا من مصدر واحد لا أعرف ما هو..

يجمعنا المدير ويقول لنا في حزم:

ـ«لقد انتهى زمن الغذاء المجاني.. نريد جداول تحدد مهمة كل موظف عندنا وعدد الساعات التي عملها والتي لم يعملها..

أريد جداول تحدد مدى تطبيق معايير الجودة في المصلحة، وربط هذا بالمعدل الحركي الاستثنائي لأيون الأوزون.. سوف نشكل لجنة.. هذه اللجنة مهمتها الأساسية تشكيل لجنة تنبثق عنها لجنة.. واللجنة الأخيرة تحدد مجموعة من الأشخاص مهمتهم مراقبة الجدول، وعمل جداول تحدد الموظفين الذين لم يتلقوا دورات في الجودة. هؤلاء سوف تقام لهم دورات جودة ثم يتم امتحانهم.. على أن تضع الامتحان لجنة مخولة بذلك يتم ترشيحها طبقا لمعايير ضمان الجودة.. وهذه اللجنة سوف تضع خطة لتطبيق الجودة في الأشهر القادمة، وعندما نستعد لذلك سوف نشكل لجنة تحدد الوقت المناسب لدعوة هيئة الجودة كي..»

ثم ينقطع صوته فيشرب جرعة من الماء ويواصل الكلام:

ـ«وهذه اللجنة سوف...»

هنا أنظر لساعتي فأكتشف أننا نتكلم عن تطبيق الجودة منذ ثلاث ساعات.. هناك كومة من الأعمال على مكتبي، وكلها عاجل، لكن لا مفر من المجيء هنا لأن الجودة لا ترحم. الخلاصة أننا قضينا اليوم كله في التخطيط للعمل حتى لم نجد ثانية واحدة نعمل فيها. نعم.. هناك أناس خلقوا للجودة وأنا لست منهم لأنني لست جيدًا بما يكفي.. كل ما أعرفه هو أن علي الاستمرار في سماع هذا الهراء حتى لا أجد نفسي في الشارع.

متحمسون

لسبب ما يقوم أي شخص يعرف اسمي وعنواني البريدي على النت بوضع اسمي ضمن قوائم مراسلات المجموعات البريدية. هذه خدمة لم أطلبها ولم يسألني أحد عن رأيي.. لكني أتلقى كل يوم حشدًا من الخطابات من مجموعات غريبة لكنها نشطة جدًا: مجموعة مؤازرة سيد الشماشرجي.. مجموعة الألسنة اللغوية لمفاهيم الحداثة.. منتدى الماجنين لتبادل الصور المثيرة.. وهكذا..

في كل يوم أفتح صندوق بريدي لأجد مائة خطاب لا أعرف من أرسلها ولا لماذا يرسلها لي أنا، مع مناقشة قضايا لا تهمني.. هناك خطاب أول يقول:

ـ«أبو الزعازيع لم يكن قط عضوًا في منظمة إيتا الانفصالية»

ثم يصل رد من ذات المجموعة:

ـ«بالنسبة لما كتبه العضو الأحمق السابق.. أبو الزعازيع عضو مؤسس في منظمة إيتا، لكنكم احترفتم الكذب ومنافقة الأنظمة»

فيصل خطاب ثالث:

ـ«الرد الكامل على ادعاءات أبي الزعازيع.. نعم هو ليس

عضـوًا..»

ومـع كل رسـالة خطـاب يحتـاج مـني لشـهر مـن القـراءة مدعمًـا بالوثائـق والصـور.. مـن هـو (أبـو الزعازيـع)؟.. لمـاذا هـو في (إيتا) ولمـاذا ليـس فيهـا؟.. مـن هـم هـؤلاء؟.. امسـح.. امسـح..

مـا أن أنتهـي مـن المسـح حـتى أجـد عـشرة خطابـات أخـرى بسرعـة الـبرق: «أبـو الزعازيـع يـرد بنفسـه»

أقـوم بمنـع تلقـي الخطابـات بخاصيـة الحجـب. فقـط لأكتشـف أن هـذا غـير كاف.. فمرسـل الخطـاب يتغـير في كل لحظـة.. هنـاك جملـة بخـط صغـير غـير واضـح تقـول إن عـلي إرسـال خطـاب للعنـوان الفـلاني كي لا أتلقـى هـذه الرسـائل. أرسـل خطابًـا فيصلـني طلـب للتأكيـد.. هـل أنـت متأكـد مـن أنـك لا تريـد تلقـي رسـائل (أبـو الزعازيـع)؟.. واللـه العظيـم متأكـد.. وأرسـل مـن جديـد وأنتظـر..

بعـد نصـف سـاعة تصلـني عـشرة خطابـات أخـرى.. (أبـو الزعازيـع ليـس عميـلاً لحكومـة الإسـكيمو).

إذن هـو كابـوس لـن ينتهـي أبـدًا.. لا مفـر سـوى المـوت أو أن أغـير عنـواني البريـدي.. لكـن هـذا ليـس حـلاً لأنـني سـأتلقى الخطابـات عـلى العنـوان الجديـد بعـد فـترة.. لا يبـدو الانتحـار حـلاً محببًـا كذلـك لأنـه حـرام، ولـن أقـول في يـوم الحسـاب إنـني انتحـرت فـرارًا مـن (أبـو الزعازيـع)..

نعـم.. مـن فضلـك قبـل أن تضـم اسـمي لمجموعـة بريديـة،

عليك أن تتأكد من أنني مهتم بأن أعرف أخبارها. والنقطة الأهم هي ألا تضعني في مجموعة نشطة تملأ صندوق بريدي عشر مرات كل يوم. وبالطبع لا تضعني في مجموعة مهمتها الدفاع عن أبي الزعازيع.

أمام المدفع

أعتقد أن الطب مهنة مرعبة فعلاً.. هذا الرجل يلقي نظرة فاحصة إلى أحشائك وأجهزة جسدك، ويتبين العلامات على أنها لا تعمل جيدًا.. وقد رأيت أناسًا يمارسون حياتهم في نشاط وكفاءة، فلما عرفوا أنهم مرضوا صاروا كذلك فعلاً، وبرغم أنني طبيب فإنني ما زلت أحتفظ بمشاعر المواطن العادي تجاه زيارة الأطباء. مثلاً ما زال قلبي يرتجف عندما يفرغ طبيب الأمراض الباطنية من قياس ضغط دمي ويفك الربطة عن ساعدي، ويتقلص وجهه كأنه لا يعرف من أين يبدأ..

أشعر بكراهية مجنونة لطبيب الأسنان، عندما يتأمل فمي المفتوح وتشيع في وجهه ابتسامة معناها: «حلاوتك!».. معنى هذا أنه وجد كوارث.. لابد أن في فمي فجوة بركانية وأخدودين.. سوف يحضر المثقاب إياه الذي يحطم الأعصاب ويعمل في فمي للأبد.. رأيت فيلمًا قديمًا كان النازيون فيه يعذبون ضحاياهم بوساطة طبيب أسنان يحمل مثقابًا، وأعتقد أنه تعذيب عبقري فعلاً..

هناك كذلك طبيب العيون وهو يفحص قاع عيني ويتنفس في ثقل وصعوبة، فأتوتر وأتوقع أن يخرج لينادي أعضاء الجمعية الأمريكية لطب العيون، ويلقي فيهم محاضرة عن

حالتي. سوف يلتقط عشرات الصور لهذه الحالة النادرة التي لا علاج لها ولم يرها الطب قط، وينشر مقالاً مهمًا عنها.. ربما يطلب مني التبرع بعيني لخدمة الطب.. هذا طبعًا بعد موتي الذي صار وشيكًا..

لقد اعتدت منذ طفولتي أن أعتبر طبيب الأسنان وطبيب العيون عدوين لي، ينتظران الفرصة لتدميري، حتى إنني أوشك على الصراخ باكيًا:

ـ«لماذا تتحرش بي أنا بالذات؟.. سأتهمك بالاضطهاد!»

لست منهم لكني أعرف أن معظم الأطباء تقريبًا يخافون الحقن جدًا، ويخشون أن يضطروا لأن تخترق إبرة معدنية لحمهم..

يبدو لي أن هؤلاء يخافون الأطباء جدًا لدرجة أنهم قرروا أن يصيروا منهم، حتى يكونوا خلف المدفع لا أمامه. سوف يعطون الخوف للآخرين بدلاً من تلقيه..

على كل حال يمنحك الطب فرصة ممتازة، هي أن تنتقم من أطباء الأسنان وأطباء العيون. أكتشف أن المريض الذي أمامي طبيب أسنان فيتقلص وجهي وأفحصه وقد بدا على القلق والتوتر، ثم أعود للمكتب وأظل صامتًا بعض الوقت وأغطي وجهي وأبعد نظراتي عنه.. هكذا يموت رعبًا وقد أدرك أنني وجدت سرطانًا من ألعن الأنواع. إنه سعيد الحظ على كل حال، فأنا لا أملك مثقابًا أحفر به فمه وبالتأكيد لن اجري له تنظيرًا قولونيًا لمجرد الانتقام.. لا أملك انتقامًا

سـوى أن أمنحـه لحظـات مـن القلـق، وهـذا مـا أفعلـه!

لست نحسًا ولكن..

خسر المنتخب المصري مباراته أمام المنتخب الجزائري، فسادت حالة من الغم شوارع مصر.. وعلى الفور انهمرت الاتهامات للاعبين بالتقاعس، والمدرب بالإهمال، وحارس المرمى بالغرور.. طبعًا لو فاز المنتخب لانهمك الجميع في نظم قصائد الغزل في حكمة المدرب وبراعة اللاعبين..

وعلى شاشة التلفزيون ظللت عدة ساعات أرى الخبراء يبدون رأيهم:

ـ«خط الوسط ضعيف ومتخاذل..»

ـ«الهجوم لا يملك روحًا قتالية..»

هؤلاء الخبراء كانوا لاعبي كرة في الماضي، وقد عرفنا أنهم يرتكبون ذات الأخطاء.. لم يكن أحدهم بيليه أو بوشكاش مثلاً، لكنهم اليوم يتكلمون بحكمة بالغة مصداقًا لتعبير(اللي على الشط عوام). أفضل خبراء لعبة الشطرنج هم الذين لا يجلسون أمام الرقعة.. هذا معروف.. فإذا جلسوا صاروا لاعبين مستواهم متوسط أو أقل..

لكني على كل حال كنت أرى أنهم يضيعون وقتهم.. سبب الهزيمة معروف وهو أنني قررت أن أشاهد المباراة!..

أنا أصلاً كائن غير كروي لا أعرف شيئًا عن هذه اللعبة ولا قواعدها.. لا أشاهد أية مباراة على الإطلاق، لكني قد أتحمس في بعض المباريات الدولية فأجلس أمام التلفزيون.. هكذا يضيع فريقنا.. هذه قاعدة عامة..

ذات مرة قاومت رغبتي في مشاهدة المباراة ومشيت في الشارع لمدة ساعة ونصف، إلى أن سمعت أبواق السيارات ورأيت الشباب يرقصون، وحكوا لي عن حارس مرمانا الأسطوري ومهاجمينا البارعين وكيف أصيب لاعبو ساحل العاج بنوبات قلبية وكيف بكى (دروجبا) و.. و.. وفي مرة أخرى مشيت في الشارع ساعة ونصفًا إلا قليلاً ثم شعرت بالإرهاق فدخلت كافتيريا بها تلفزيون مفتوح.. ما إن جلست وطلبت كوب شاي، حتى سمعت المذيع يصرخ:

-«هدف!.. هذا هو أول هدف يدخل في مرمى مصر وفي وقت قاتل!!»

وفي خلال ثلاث دقائق طرد أهم واحد من لاعبينا ودخل الهدف الثاني!.. كان علي أن أرحل قبل أن يسقط نيزك على الفريق أو يصاب لاعبونا بوباء إيبولا..

هكذا عرفت الحقيقة: أنا وبال على فريقنا القومي لسبب مجهول، وأفضل المباريات هي تلك التي لا أراها.. وأعتقد أنهم لو قرءوا هذه السطور لفهموا كل شيء، ولدفعوا لي مكافأة محترمة مقابل عدم مشاهدة المباريات..

لا أؤمن بالنحس، لكن هناك تفسيرًا فيزيائيًا محترمًا لما

يحـدث.. وأعـد منتخـب مـصر ألا اشـاهد أيـة مبـاراة لـه لمـدة عامـين عـلى الأقـل إلى أن يسـتعيد مسـتواه..

فلسفة اللبن

ثمة شيء غير مفهوم في اللبن.. أنت تعرف أن له طابعًا معينًا يوحي بالطهر، وقد ارتبطت الجنة بأنهار اللبن والعسل.. الاتصال بالشياطين والعياذ بالله يتضمن استعمالا معينًا للبن لا أجرؤ على ذكره.. أي أن إهانة اللبن خرق للمقدسات.. لكني أضيف كذلك أنه سائل فلسفي..

هناك ذلك الإلهام المتدفق الذي تشعر به مع اللبن..

أنت في المطبخ.. زوجتك تتكلم مع صديقتها على الهاتف.. توصيك بأن تراقب اللبن الموضوع على الموقد.. تقلبه من وقت لآخر وتهشم طبقة الدهن المتخثرة على سطحه كي تضمن خلوه من الحمى المالطية..

تتذكر الحمى المالطية.. كان لك صديق أصيب بها واستغرق أكثر من عام كي يشفى.. بعض الأنواع تكون خطرة فعلا. الحمى المالطية هي البروسللا.. اكتشفها بروس الضابط البريطاني.. اكتشفها في جزيرة مالطة وكانت تصيب الجنود البريطانيين.. مالطة!.. كان لك صديق قضى شهر العسل في مالطة وقال إنها رائعة، برغم أن زوجته لم تكن رائعة بالقدر ذاته، وسرعان ما دب بينهما الخلاف وتم الطلاق بعد عامين..

من يدافع عن قضية خاسرة يقال إنه يؤذن في مالطة..

هـل حقًـا لا يوجـد مسـلم واحـد في مالطـة؟.. أنـت تـؤذن في مالطـة عندمـا تكتـب عـن الوعـي العـربي، لكنـك تأمـل في أن يبلـغ صوتـك واحـدًا يـأتي لتلبيـة الآذان..

صديقـك كان اسـمه (صالـح).. ديفيـد بـروس كان بريطانيًـا.. بريطانيـا احتلـت مـصر فـترة طويلـة لكنهـا لـم تـترك علامـة ثقافيـة واضحـة كمـا تركـت فرنسـا في تونـس والجزائـر.. لا يوجـد بلـد عـربي احتلـه الألمـان. فقـط ظهـر الألمـان فـترة قصيرة جـدًا ممثلـين في الفيلـق الأفريقـي وقائـده رومـل.. خطـوط الإمدادات لـم تتناسـب مـع سرعـة تقدمـه لـذا خـسر الحـرب.. لابـد مـن كتابـة مقـال عـن هـذا الموضـوع.. يجـب ألا تسـبق طموحاتـك إمكاناتـك..

تهـرع لتحـضر ورقـة وتـدون عليهـا بعـض الأفـكار.. هنـاك فيلـم جميـل اسـمه (فالكيري) يحـكي عـن مؤامـرة اغتيـال هتلـر.. هـل كان روميـل في المؤامـرة؟.. لابـد مـن البحـث عـن هـذا الجـزء..

هنـا تسـمع صـوت (طـش!).. تهـرع للمطبـخ لتكتشـف أن اللبن فـار فغطـى الموقـد وأغـرق الأرض كلهـا.. لـم تعـد منـه قطـرة في الإنـاء السـاخن.. تـدرك هـذا وأنـت تسـمع صـوت، خطـوات زوجتـك قادمـة عـبر الصالـة وهـي تقـول:

ـ«أشـكرك كثـيرًا.. أرجـو ألا أكـون قـد أثقلـت عليـك بهـذا الطلـب!!»

أتـرك مـا حـدث بعـد هـذا لخيالـك!.. نعـم.. اللـبن سـائل

غامـض ملهـم وسـيظل كذلـك.. لا تنـس أنـه مصـدر إلهامـي بهـذا المقـال الـذي أرجـو أن يكـون قـد راق لـك!!

حسّنْ خطك

سمعت في المدرسة عبارة (حسن خطك) مليون مرة على الأقل، كما كتبها المعلمون في كل كراريسي. وكان لها في أذني ذات رنين (احترم نفسك).. حاولت جاهدًا أن أسيطر على جماح القلم وأن أمشي في المسارات التي حددها أساتذة الخط العربي سلفًا لكني فشلت.. وكنت رسامًا جيدًا لهذا عرفت المعتقد الخرافي الشائع لدى الناس أن الرسام يجب أن يكون خطه رائعًا..

فيما بعد بدأت أكتب بالحروف اللاتينية، فاكتشفت أنها أسوأ وأقبح من حروفي العربية، حتى شبهها صديق لي بأنها صراصير تحرك شواربها، وأنه لو رش أحدهم الورقة بمبيد حشري لصارت بيضاء من غير سوء..

لم أشعر قط أن خطي بهذا السوء، لكني قدرت أن الأمة لا تجمع على باطل, فما دام كل هؤلاء أجمعوا على سوء خطي فعلي الاعتراف بهذا..

إنه طفولي ساذج لا يلتزم بالسطر أبدًا، ويجمع بين حروف الرقعة والنسخ في كلمة واحدة.. واضح وضوحًا مهينًا..

كاد الأمر يمر على خير لولا أنني عملت بمهنة الكتابة، وصار علي أن أقدم للمطبعة هذا الخط مرارًا فأتلقى

ابتسامات السخرية من العاملين، أو يقول لي أحدهم: «الموهوبون خطهم سيئ دائمًا!..»

ازداد الأمر سوءًا عندما وجدت أنني غير قادر على قراءة ما أكتبه أحيانًا..

خفف من ألمي نوعًا معرفتي أن عباس محمود العقاد كان خطه رديئًا، وكان يحرص على ألا يراه أحد لذا كان يرسل كتبه في مظاريف مغلقة، وكان يكتب بحمر أحمر مميز.. هناك آخرون اشتهروا بالخطوط الرديئة، وفي عالم الغرب رأيت صفحات بخط (هيرمان ملفيل) فحسبته يرسم لا يكتب..

ثم ظهر الكمبيوتر، وهكذا انتهت علاقتي بالورقة المكتوبة للأبد.. كل شيء صرت أكتبه على الكمبيوتر حتى لو كان حساب البقال.. الخواطر أكتبها على الكمبيوتر.. كل شيء..

بعد عشر سنوات من استعمال الكمبيوتر أدركت في رعب أنني صرت غير قادر على الكتابة على الإطلاق. ولهذا أرى نظرة دهشة في حفلات التوقيع عندما يأخذ أحد القراء كتابه موقعًا.. طبعًا من الصعب أن آخذ كل الكتب لأضعها في الطابعة..

نصيحتي الوحيدة لكل من يرغب في احتراف الكتابة، هي أن يمضي بعض الوقت في مدرسة خطوط.. هذا سيعفيه من حرج كثير في الغد، خاصة لو قال له أحد الناشرين: حسن خطك!

المتذاكيات

منذ نعومة أظفاري أعرف هؤلاء المتذاكين، الذين يرون ويفهمون ما لا نراه نحن..

الفتيات من أهم أعضاء نادي المتذاكين، وأعتقد أن للمجلات النسائية دورًا في هذا.. فالفتاة تمضي وقتها في قراءة تلك المجلات، وتكون ثقافتها من معلومات على غرار:

«عالمة أمريكية تؤكد أن الرجل الذي يعبث في أذنه كثيرًا بخيل..»..

«الرجل الذي يلبس سروالاً أحمر مصاب بالبارانويا». طبعاً رأيي في الرجل الذي يلبس سروالاً أحمر مختلف تمامًا، لكن لا يمكنك عمل قواعد علمية اعتمادًا على هذا السخف.. إنه مجرد أسلوب لملء الصفحات لا أكثر..

الويل كل الويل لك لو تقدمت لفتاة من هذا الطراز.. إنها فرصة الفتاة الأخيرة والوحيدة كي تجلس في موضع القاضي، وتصدر أحكامها وتقرر.. أمامها شاب يحاول الظفر برضاها وهي تمتحنه.

سوف يضع يده على خده الأيمن.. آآآآه.!.. لقد قرأت في مجلة (سيدتي) أن هذا دليل على أنه كذاب.. الرجل الكذاب لا يشفى أبدًا..

سوف يفرك أنفه.. هناك عالم ألماني قال إن هذا دليل على عدم الصراحة. أما لو كان يضع ساقًا على ساق فهو مصاب بعقدة (أوديب).. آسفة.. لا أطيق الرجل (ابن أمه) أبدًا..

صديق من أصدقائي تقدم ذات مرة لفتاة من هذا الطراز، فسألته في تحد عن رأيه في الحياة الزوجية ودور الزوجين فيها، وكانت تهز رأسها موافقة أو معترضة على ما يقول كأنها ممتحن في لجنة شفوية.. لسان حالها يقول: ليست هذه هي الإجابة التي أنتظرها منك..

ثم تكلم أبوه المستشار الوقور المسن فصمت صاحبنا، هنا وجدتْ الدليل الأكيد على أن صاحبي إمعة ضعيف الشخصية لا يستطيع مواجهة أبيه.. العريس المثالي في رأيها هو الذي يصيح في أبيه: «اصمت!.. عندما يتكلم الكبار لا تتدخل!»

على كل حال تعلمتُ أن الفتيات المتذاكيات من هذا الطراز يرفضن ويرفضن.. وفي النهاية تكتشف الفتاة أنها تقدمت في العمر جدًا، وأنه من الصعب أن يظهر في حياتها من يخرس أباه أو لا يتحسس أنفه أو يضع يده على خده الأيمن، لهذا توافق على أول طارق، وهو غالبًا رجل كذاب غير صريح بخيل ابن أمه وضعيف الشخصية أمام أبيه لكنه يصلح على كل حال.. وتجلس في الكوشة تتنفس الصعداء.. لقد كادت تلك المجلات النسائية بمن فيها من خبيرات أمريكيات تضيع عمرها كله!

مكالمة واحدة فقط

لسنا والحمد لله من مدمني الفضائيات. وباستثناء بعض القنوات الإخبارية وقناة للرسوم المتحركة، يصعب أن ترى على شاشتنا أي برنامج آخر.. حتى يوم الاثنين الماضي..!

ابنتي ذات السنوات التسع تقلب البرامج على شاشة التلفزيون الصغير الموجود في غرفتها، وهنا تجد تلك المذيعة الملطخة بالأصباغ، المجنونة تقريبًا تصيح:

ـ«لم يعرف أحد بعد صاحبة هاتين العينين!.. نحن في الانتظار!!»

مع أرقام هاتف عديدة لمن شاء الاتصال لحل المسابقة. هناك أرقام في مصر وكل دولة عربية أخرى.. وطبعًا هاتان العينان هما عينا (هيفاء وهبي).. أي مجنون يمكنه أن يعرف أنهما عينا (هيفاء وهبي).. لكن أحد المشاهدين يتصل:

ـ«هاتان عينا (سعاد حسني)..»

تصيح المذيعة في حسرة:

ـ«لا والله.. تخسر ثلاثة آلاف دولار!»

ليس لدى ابنتي جهاز جوال، لذا تهرع لغرفتي تتوسل لي في حرارة.. المسابقة سهلة والحل بسيط والمتسابقون أغبياء..

أتوسل لك يا أبي.. مكالمة واحدة فقط. أقول لها في صرامة إنني لا اسمح بهذا الكلام الفارغ.. تنظر لي في كراهية ثم تهرع تتوسل إلى أمها.. تلين زوجتي مع التوسل والضغط والدموع فتناولها الجوال الخاص بها، وهكذا يحدث السيناريو الذي توقعته.. مرحبًا بك.. نرجو الانتظار.. مقطوعة موسيقية طويلة جدًا.. نرجو الانتظار.. ثم: شكرًا.. لقد تم تسجيل اسمكم.. في النهاية انتهى رصيد الجوال وصار صفرًا..

على الشاشة يتوالى الأغبياء: هاتان عينا (محمود المليجي).. هاتان عينا (جيفارا).. وابنتي موشكة على الجنون.. في النهاية تتوسل لي دامعة كي تكرر الاتصال، فأعطيها جهازي وأنا موشك على الانفجار.. تجرب ثانية فيحدث كل شيء من جديد، وما تنجح فيه هو تحويل رصيدي إلى صفر..

نامت في النهاية مرهقة دامعة، وفي اليوم الثاني صحت مبكرًا جدًا وجلست أمام الشاشة وأقنعت أمها ان تعيد شحن رصيدها وهذه المرة كانت المذيعة البلهاء تعرض عيني (أليسا). الغريب أن زوجتي بدأت تقتنع أن هذا البرنامج جميل ومفيد وأن فرصة الفوز قريبة جدًا لو صبرنا. مشكلتي هي أنني عجول ضيق الخلق.. نظرت لعيني ابنتي وعيني زوجتي اللامعتين المليئتين بالحماسة.. مبروك!.. لقد تحولتا إلى مقامرتين بالفعل.. هذا المشهد هو ذات المشهد الذي قرأناه في رواية (المقامر) لدستويفسكي، لكنه قمار بلا أوراق لعب ولا عجلة دوارة.. قمار خفي جدًا وأنيق جدًا..

هكذا انتهزت فرصة غيابهما بعض الوقت، وقمت بتشفير

قنـاة القمـار تلـك.. هكـذا أقنعـت ابنـتي أن القمـر الصناعـي قـد تلـف وإن كنـت انتظـر في رعـب أن تجـد قنـاة أخـرى، وأن تطالبـني بمكالمـة واحـدة فقـط..

حـتى ذلـك الحـين أرجـو أن نسـمي الأشـياء بأسـمائها.. هـذه ليسـت قنـوات ترفيهيـة.. هـذا قمـار.. والله العظيـم قمـار!!!

تليباثي

تقول زوجتي في فخر:

ـ«أنا وأفراد أسرتي نملك الكثير من التواصل الفكري.. نشعر بأرواح بعضنا مهما بعدت المسافات والأيام.. هذا لأننا أسرة مترابطة فعلاً»

انبهرت بهذه الدرجة الخارقة من الترابط الأسري.. معنى هذا أنني في أسرتي كنت منبوذًا وكنا مجموعة من الذئاب المتصارعة. تأمّل زوجتي إذ تنهض في الصباح قلقة متعكرة المزاج، وتقول إنها تشعر أن أختها المقيمة في الخارج ليست على ما يرام.. تتصل بها في أقرب فرصة:

ـ«شعرت بأنك لست بخير..»

بالطبع تكتشف الأخت على الفور أنها كذلك، وتبدأ في التفسير:

ـ«نوبة انفلونزا قوية.. كاد الصداع يقتلني..»

هنا تضع زوجتي السماعة وتقول في انتصار:

ـ«هل ترى؟.. تليباثي.. اتصال فكري وروحي كامل بيننا»

انبهر بشدة بهذا.. خاصة عندما يتصل بنا أخوها بعد

يومين ليقول إنه قلق على زوجتي.. هذه المرة أنا متأكد أنها بخير، لكنها تتذكر أنها تعثرت على الدرج منذ أيام وكادت تسقط.. يا للشفافية!.. فعلاً هم على اتصال روحي كامل..

أصيبت حماتي بورم في المبيض، وقد رأى الجراح أنه قد يكون خبيثًا لذا علينا أن نحلله بعناية. طلبت مني زوجتي أن أكتم الخبر حتى لا يعرف أي واحد من أخوتها..

أجرت حماتي جراحة ناجحة، وتبين أن الورم حميد والحمد لله.. فقط تذكرت أن أحدًا من أولادها لم يتصل من الخارج طيلة الأسبوع.. قلت لزوجتي:

-«من الواضح أن التليباثي كان في إجازة هذا الأسبوع.. والدتك كانت في خطر داهم فلم يشعر احد بقلق ولم يتصل أحد بينما تتصلون ببعض لمجرد سوء الهضم..»

قالت في حماسة:

-«لأن الورم حميد.. أدركنا هذا على الفور فلم يقلق أحد»

مصائب كثيرة انهالت علينا مؤخرًا، منها حمى طويلة أصابت زوجتي، ثم أصيبت أمها بداء السكري.. كادت ساق زوجتي تتهشم عندما تعثرت في الشارع.. تشاجرنا مرات لا حصر لها..

كل هذا ولم يتصل أي واحد من الأشخاص الحساسين مرة

واحدة.. قلت لزوجتي هذا فكان رأيها أن السبب أنه لا توجد مشكلة خطيرة حقًا..

من جديد تحسنت الأمور، ونالت زوجتي ترقية في العمل.. واستردت حماتي صحتها، وجلسنا نحتفل جميعًا كأسرة سعيدة هانئة، هنا دق جرس الهاتف الطويل القادم من الخارج.. كان هذا أخا زوجتي يسألها بصوت مرتجف:

-«وجهك لا يفارق أحلامي.. أراك تبكين وتتعذبين.. لا تخفي عني شيئًا.. أعرف أنك في مشكلة حقيقية..»

ابتلعت زوجتي قطعة التورتة التي في طبقها، ورشفت رشفة من العصير ثم فكرت وقالت:

-«لا أعتقد أن هناك مشكلة.. ولكن.. لحظة.. تذكرت.. لقد أغلقت باب الحمام على إصبعي أمس.. أنت فعلاً شديد الحساسية.. سلمت لي وسلم حسك المرهف!»

كدت أذكرها أنها منذ أسبوعين كانت مريضة لدرجة الاحتضار ولم يشعر أخوها بشيء، بل إنه اتصل بها فردت عليه بصوت مبحوح متقطع وهي لا تكف عن السعال لحظة، لكنه لم يلحظ أي شيء غريب.. لكنها كانت منتشية جدًا لأن أسرتها تملك هذه الحساسية الشديدة، وقد وضعت السماعة وقالت لي:

-«التليباثي.. هذا يفسر كل شيء.. تمنيت دومًا لو أنك نشأت مثلي في أسرة يحب أفرادها بعضهم بهذا القدر.. هذه نعمة

لا يمكنـك أن تتصورهـا.. »

ذات القانون!

تطبيق ذات القوانين على الطرفين أمر بديهي، لكنه عسير جدًّا. كلنا نردد طيلة اليوم تعبير (المعايير المزدوجة) لكننا نمارسها بلا توقف. كم مظاهرة خرجت مطالبة بمنع المذابح في الكونغو منذ أعوام؟.. فعلها العالم الغربي لكن أحدًا في العالم العربي لم يفعلها. لكننا نعجب بالغربيين جدًا عندما يخرجون في مظاهرات من أجل غزة..

أتضايق جدًا عندما يلح علي صديق طالبًا استرجاع كتاب له، لكني كذلك أتضايق عندما يحتفظ صديق آخر بكتاب اقترضه ولا يرده لي. زوجتي تتضايق جدًا من زوجة أخيها التي تكلمه بصوت عال وبلا احترام، لكنها تقول لي هذا بصوت عال جدًا!. أمي ترى أن زوجتي لا تخدمني كما يجب، لكنها في الوقت ذاته تغتاظ من زوج ابنتها الذي يطالب ابنتها بأن ترعاه كما يجب.. وهكذا....

عندما تضيء كشافات سيارتك بقوة فلكي ترى الطريق، بينما يضيء الآخرون كشافات سياراتهم بقوة في عينك لأنهم وقحون معدومو اللياقة..

من القصص الظريفة فعلاً التي تذكرني بهذا الموضوع قصة حقيقية عن طالب جامعة أمريكي، قرأ بعناية لوائح

الجامعة منذ ١٥٠ عامًا. هكذا دخل لجنة الامتحان واستدعى المراقبين وطلب بثبات كوبًا عملاقًا من البيرة!

طبعًا ذهل المراقبون لهذا الطلب المستحيل.. بيرة في لجنة امتحان؟.. لكن الطالب قال إنه قرأ اللائحة التي عمرها ١٥٠ عامًا وهي تنص بوضوح على أن من حق الطالب شرب كوب بيرة كبير في لجنة الامتحان.. وهو كذلك يهدد بأن يرفع قضية على الجامعة لمخالفة اللوائح..

هكذا اجتمع إداريو الجامعة لدراسة الموقف.. وماذا لو طلب الجميع ذات الشيء؟.. مستحيل. هكذا طلبوا اللائحة اللعينة لدراستها.. وفي النهاية وجدوا حلاً عبقريًا لهذه المشكلة..

لقد طردوا الطالب من اللجنة لأنه لا يحمل سيفًا، بينما اللائحة تنص على طرد أي طالب لا يحمل السيف لأن هذه علامة على عدم الاحترام!..

هكذا عومل الطالب بنفس القانون الذي تمسك بتطبيقه، وهو عقاب عادل كما ترى!. يجب على من يطلب تطبيق القانون أن يقبل تطبيقه على نفسه أولاً، ويبدو أن هذه البديهية غائبة عن الجميع ممن يدخلون لجان الامتحان من دون سيف.

النــذل

إن (عـادل) نـذل.. الـكل يقـول هـذا عنـه.. أمـه وأختـه وأخوه.. كلهـم يعرفـون أنـه نـذل وصاحـب مصلحـة وأنـك مـتى احتجـت لـه لـم تجـده. يحـاول (عـادل) أن يزيـل هـذا الانطبـاع ويبـذل مجهـودات عنيفـة، لكنـه لا يظفـر إلا بعبـارة: «برغـم أنـه نـذل فمـن الغريـب أنـه مفيـد أحيانًـا..»

أصيـب أخـوه في حـادث مـروع، ونقـل إلى المستشـفى.. خـلال خمـس دقائـق كان (عـادل) هنـاك.. لـم تـأت زوجـة (عـادل) إلا في اليـوم التـالي، وكـذا لـم تـأت أم (عـادل) ولا أختـه، وحينمـا احتـاج الأطبـاء إلى دم تـبرع (عـادل) عـلى الفـور لأخيـه..

في اليـوم التـالي جـاءت بقيـة الأسرة، وكان رأيهـم إن (عـادل) نـذل لكنـه يتـصرف كالرجـال أحيانًـا، وتصرفـه هـذا هـو الاسـتثناء الـذي يؤكـد قاعـدة نذالتـه.. صحيـح أن أختـه مـن ذات فصيلـة الـدم لكنهـا رفضـت التـبرع بقطـرة دم واحـدة لأخيهـا لأن لديهـا أسرتهـا، وهـي بحاجـة لقوتهـا. قالـت للأطبـاء: «لـم لا تأخـذون المزيـد مـن دم ذلـك النـذل (عـادل)؟»

قالـوا لهـا إن هـذا ببسـاطة سـيقتله، فقالـت: «عـلى الأقـل سـينقص عـدد الأنـذال واحـدًا..»

عندمـا شـبت النـار في بيـت أختـه، سـكب (عـادل) عـلى نفسـه

دلـوًا مـن المـاء ثـم اقتحـم النـيران، ووسـط الدخـان خـرج يحمـل ابنـتي أختـه تسـعلان. هنـأه الـزوج الـذي وقـف في الخارج ضاحـكًا وقـال:

ـ«غريـب أن يصـدر هـذا التـصرف ممـن هـو مثلـك، لكـن قـد تسـبق العرجـاء»

تـم تقسـيم المـيراث كمـا تعلـم في حيـاة أمـه، فتبـين أن المـرأة المسـنة تركـت كل شيء لأختـه وأخيـه لأن (عـادل) نـذل ولا يسـتحق مالهـا، بينمـا أخـواه كريمـان شـهمان..

لـم يقـل (عـادل) شـيئًا، وعندمـا ماتـت الأم بعـد ذلـك مـلأ الدنيـا صراخًـا وبـكاء وأصابـه اكتئـاب شـديد. قـال أخـوه مفسـرًا وهـو يلتهـم قطعـة كبـيرة مـن اللحـم: «السـبب أنـه نـذل، وضمـيره يؤنبـه عـلى مـا فعلـه مـع أمـه»

هنـا انحـشرت قطعـة لحـم كبـيرة في حلقـه فـأزرق لونـه وراح يجاهـد طلبًـا للتنفـس، هنـا وثـب (عـادل) فـوق المنضـدة والتف وراء أخيـه، وأحـاط بطنـه بيـده وضغـط بقـوة كمـا تقـضي منـاورة (هايمليـخ) الشـهيرة، مـن ثـم اندفعـت قطعـة اللحـم خارجـة..

قالت الأخت في استحسان:

ـ«لا بأس.. حتى الأنذال يظهرون بعض الشهامة أحيانًا»

(عـادل) صديقـي، وأنـا اكرهـه لأنـه نـذل.. صحيـح أنـني أقـترض منـه مـالاً بـلا توقـف، وأكلفـه بالأمـور الصعبـة الشـاقة مثـل تبديـل إطـار السـيارة والشـجار في الدوائـر الحكوميـة، لكنني

لن أنسى حقيقة أنه نذل وأننا جميعًا أكرم منه، صحيح أنه مواظب على الصلاة، لكني أعرف أنني أفضل منه في كل شيء، وفي المرات القليلة التي أصلي فيها أحمد الله على أنه لم يخلقني نذلاً مثله.

فن التمارض

يصعب على الرجل العادي أن يصدق أن المرض شيء محبب وينقذ من أعقد المواقف، وأن هناك أناسًا تتمنى أن تمرض بشدة.. تقول له هذا، فيضحك في سخرية ويقول:

-«يا أخي.. هل تتصور أن إنسانًا يريد أن يمرض بكامل إرادته؟»

الإجابة هي (نعم) وبقوة.. لكن بالطبع يتمنى الإنسان أن يمرض بمرض بسيط سهل مثل الزكام، فلا يوجد من يتمنى أن يصاب بالسرطان أو الفشل الكلوي على قدر علمي..

هناك من الناس من يضعك تحت انطباع دائم أنه مريض للأبد. لا تعرف هو مريض بأي شيء بالضبط. المهم أنه مريض وعليك ألا تتعبه ولا تجادله كثيرًا، حتى لو صفعك على وجهك أو مد يده فأخرج ما معك من نقود. هناك من يتابع البرامج الطبية ويقول مع كل مقطع: هذا أنا بالضبط!. تذكره أن المتكلم في التلفزيون يناقش مرض سرطان القولون الناتج عن مرض الإيدز، فيكرر: أنا بالضبط!!

هناك نوع ثالث من هؤلاء المرضى، وهم من يجيدون الادعاء المركب.. بمعنى أنه لا يتظاهر فقط بأنه مريض، بل يتظاهر كذلك بأنه مريض يخفي مرضه حتى لا يقلق

الآخرون!.. هكذا يقضي وقته في أداء تمثيلي مذهل.. يرسم الألم على وجهه ثم يخفيه لأن الآخرين يرونه. وينظر لك نظرات جانبية ويسبل عينيه بمعنى (لا تدعهم يعرفوا!)..

ولكن ما جدوى ادعاء المرض؟..

أولاً هو يجعل المرء يظفر بالشفقة والعناية الزائدة.. ثانيًا هو يضفي عليه لمسة استشهاد لا شك فيها.. إنه رجل نبيل يتحامل على نفسه ويخفي آلامه عن الناس.. ثالثًا هو يرفع عنه المسئوليات، من منطق أنه ليس على المريض حرج..

يجيد هذا النوع من المرضى انتقاء ضحاياهم جيدًا. مثلاً الأم المسنة التي أعرف انها سليمة تمامًا وأن ابنها مريض بكل أمراض العالم، وبرغم هذا هي لا تكف عن الأنين والتوجع. عندما أخبر ابنها أنها سليمة تمامًا يتوحش ويصر على انني لا أفهم شيئًا.. ألا تراها تتوجع؟.. أقنعه بلا جدوى أن الصراخ ليس دليلاً على شدة المرض.. النتيجة هي أنه لا ينام ويقضي أيامه متوترًا حتى يموت، فتبدأ هي في البكاء عليه..

على أنني في كل مرة أحاول فيها أن ألعب ذات اللعبة وأدعي السقم قليلاً، يكتشف أمري سريعًا، ويحضرون لي طبيبًا بارعًا يفحصني بعناية ثم يؤكد أنني أتمارض لا أكثر.. أو يصف لي حقنًا عملاقة من النوع الذي يحرق ويلهب ويدمي ويؤلم.. ويصر على أن آخذ حقنتين يوميًا منها. الخلاصة أن التمارض فن معقد لا أجيده ولا يمكن تعلمه، ولهذا أفضل أن اظل

صامتًا مهما اشتد بي المرض.

لأنني لا أفهم

لي تعاملات كثيرة جدًا مع المخرجين التلفزيونيين والسينمائيين لإعداد نصوص لي في صيغة درامية. أقول إن لي تعاملات كثيرة لكن شيئًا لم يخرج للنور تقريبًا أو قط..

هناك أسباب عديدة لهذا، لكن أهمها في رأيي هو إصرار المخرجين على أن السينما عالم معقد متشابك، وإنني لا أعرف عنه شيئًا. السبب الثاني إصرار المخرج على أنه مبدع وليس مجرد موصل لأفكار الآخرين.. لابد من لمسة يضيفها..

أقبل هذا في تواضع، ونجلس لقراءة العمل في مقهى وسط البلد، فأقترح أن يكون مشهد فلاش باك تستعيد فيه البطلة ما حدث لها أمس، هنا ينفث المخرج دخان سيجارته في وجهي ويقول:

-«أنت تقرأ الكثير عن السينما، لكن دعني أؤكد لك أن التنفيذ يختلف كثيرًا.. عليك أن تنسى كل ما قرأته من كلام نظري..»

أبتلع ريقي، وأقترح أن تكون هناك لقطة للبطلة وحدها في غرفتها تفكر، فيصيح:

ـ«صعوبات انتاجية!.. أنت لا تدرك مدى الصعوبات الإنتاجية في مشهد كهذا!»

أقترح ألا تفكر البطلة، لكنه مصر على أن هذا يكلف الكثير من المال.. أقترح عليه ألا تجلس البطلة في غرفتها بل في الشارع، فيقول في ضيق:

ـ«هذا يتطلب مئات التصاريح للتصوير في الشارع!»

أما عن النص نفسه فلابد من التدخل.. في رأيي أن القصة متكاملة، لكنه يرى أنها غير مناسبة سينمائيًا.. هناك شخصية مهمة اسمها (عفاف).. لابد من حذف (عفاف) هذه.. ليكن. نحذف (عفاف).. يصر على إدخال شخصية اسمها (هدى) وشرير اسمه (عباس).. الرؤيا الدرامية تحتاج إلى هذا. البطل والبطلة يهربان في شبكة مترو الأنفاق.. يرى هو أن هذا المشهد غير مناسب سينمائيًا..

ـ«أنت لا تفهم هذه الأشياء.. سوف نجعل البطل و(هدى) يهربان عبر شبكة الترام..»

ـ« ومعهما الميكروفيلم طبعًا؟»

ـ«الميكروفيلم ليس جميلاً سينمائيًا.. سوف نجعل ما يهربان به تمثالاً فرعونيًا عتيقًا..»

وهكذا يتدخل في كل شيء ويغير كل شيء.. كل شيء معقد وصعب وأنا لا أفهمه..

في النهاية أكتشف أن ما صار له العمل هو عمل جديد

تمامًا لا علاقة له بما كتبته، لدرجة أنه يوحي لي بقصة جديدة مثيرة!

إنهم محترفون حقًا.. وأنا الذي ظننت أنه يتدخل لمجرد الحاجة الطفولية للظهور، وأن يشعر بأن التأليف لعبة أطفال يستطيع أي واحد أن يقوم بها.. النتيجة هي أن العمل يتغير بالكامل، والأهم أنه لا يجد طريقه للشاشة أبدًا، فإذا اتصلت بالمخرج أسأله عن سبب تعثر المشروع، قال لي:

-«المنتجون غير راضين عن هذا السخف.. مطاردة عبر شبكة الترام وتمثال فرعوني مسروق!.. المشكلة هي ان المؤلفين لا يفقهون أي شيء عن فن السينما.. هذه هي الحقيقة المؤسفة!»

كتاب معين

في طفولتي كنت ألعب في مكتبة أبي العملاقة، وخطر لي أن أبحث وراء أحد الأرفف. وجدت حزمة من الأوراق وضعت في كيس من البلاستيك.. أوراق عتيقة قديمة متآكلة مصفرة، فغلبتني روح المغامرة وتخيلت أنني وجدت خارطة كنز من العصر العباسي..

كانت الأوراق تحمل غلافًا كتب عليه بخط متشابك جميل (ألف ليلة وليلة). رحت أقلب الأوراق غير عالم أن هذه نسخة قديمة جدًا غير مراقبة وغير مهذبة من ألف ليلة وليلة. ولما كان أبي يرحمه الله مثقفًا محترمًا وليس من الطراز الذي قد يجول بخاطرك، فإنني أعرف سبب احتفاظه بهذه النسخة وعدم تدميرها: أنها مخطوط ثمين ونادر لم يجرؤ على التخلص منه.

حاولت قراءة المكتوب فلم أفهم الكثير لحسن الحظ، لكني قدرت أن هذا أثر مهم ربما يعود للعصر العباسي كما توقعت فعلاً. هكذا حملت الكيس بما فيه، وأخفيته في تلك الفجوة في فراشي تحت الألواح الخشبية. الشيء الثاني الذي تأكدت منه هو أنني سأعاقب بقسوة على هذا الفضول الزائد والتدخل فيما لا يعنيني.. الصمت أفضل سياسة إذن..

جلست في براءة أقرأ مجلات الأطفال، ومر عامان قبل أن أجد أبي ينقب في قلق وتوتر عن شيء ما في غرفة المكتب.. بالطبع ليست قائمة المشتبه فيهم طويلة. هكذا راح ينظر لي.. يوشك على الكلام ثم يفضل الصمت.. إنه يعرف.. يرى الإجابة في عيني لكن كيف يسأل؟

يقول لي:

ـ«هل وجدت شيئًا في مكتبي؟»

فأقول في براءة:

ـ«وجدت أشياء كثيرة.. عن أيها تتكلم؟»

ـ«هناك كتاب.. كتاب معين»

ـ«المكتبة مليئة بالكتب المعينة وإلا فلماذا يسمونها مكتبة؟»

عندما كبرت وتزوجت حرصت على أن أحتفظ بفراشي القديم على سبيل الذكرى. اليوم بعد كل هذه الأعوام تذكرت هذه القصة، فرحت أعبث في الفجوة بين الألواح فلم أجد ذلك الكيس بما فيه. لا يوجد متهمون كثيرون.. إن ابني المراهق ينام على هذا الفراش كثيرًا.. لكن كيف أسأله؟.. هل وجدت شيئًا في الفراش؟.. شيئًا مثل ماذا؟.. ما الذي يمكن أن يجده أي إنسان في فراش قديم؟. سوف يقولها ببراءة وسوف أصمت.وأكتم غيظي حتى أموت بالفالج.. هل هناك من حل آخر؟

والنصيحة الأخلاقية لهذه القصة هي: عندما تسرق فعليك أن تسرق شيئًا لا يجرؤ صاحبه على الإبلاغ عنه مهما حدث!

الفهرس

قطعة الشيكولاته الأخيرة ٥
سذاجتي ٩
تخنقني أزمنة اللاجدوى ١٣
سيما.. سيما ١٧
كلي يا حبيبتي ٢١
ملاك صغير جدًا ٢٥
الشفرة الغذائية ٢٩
كلب عجوز وحيلة جديدة ٣٣
نيولوجيزم ٣٧
هيافة ٤١
هكذا قالوا ٤٥
الصارخون ٤٩
عن الهاموش وحمامات السباحة ٥٣
ألغاز طبية ٥٧
لبيب يعرف كل شيء ٦١
صينية الآلام ٦٥
فيديو كليب يا باشا ٧١
حبة بازلاء ٧٥
وقائع اختفائي الغامض! ٧٩
عاصم ٨٥
قط آخر ٨٩

الشاردون ٩٣
سفارة القطب الشمالي ٩٧
هل تأملت نهرًا؟ ١٠١
عن شجاعة الجهل ١٠٥
رانية تحبني ١١١
العقرب الإلكتروني ١١٥
فن إقراض الكتب ١١٩
رجل غير أناني ١٢٣
سر الصنعة ١٢٧
صنعة الكلام ١٣١
خدمة واحدة فقط ١٣٥
لأنك رجل متعلم ١٣٩
البنسات الثلاثة ١٤٥
طريقك إلى النجاح ١٤٩
أنا شديد الأهمية ١٥٣
ألزايمر مصغر ١٥٧
إيهام ١٥٩
حياة ضاعت ١٦١
إنبهر مرة واحدة ١٦٣
فن التسخيف ١٦٥
من أجل مزيد من الجودة ١٦٩
متحمسون ١٧١
أمام المدفع ١٧٥
لست نحسًا ولكن ١٧٩
فلسفة اللبن ١٨٣

حسنْ خطك..... ١٨٧
المتذاكيات..... ١٨٩
مكالمة واحدة فقط..... ١٩١
تليباثي..... ١٩٥
ذات القانون!..... ١٩٩
النذل..... ٢٠١
فن التمارض..... ٢٠٥
لأنني لا أفهم..... ٢٠٩
كتاب معين..... ٢١٣

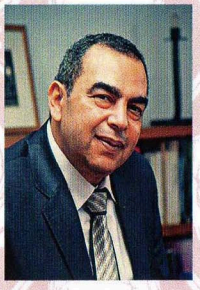

هذه مقالات ساخرة قصيرة لا تبغى سوى جعلك تبتسم بعدها تنفجر كالفقاقيع وتبلل أرنبة أنفك لثوان.

لهذا نقدم جائزة لأى شخص يتذكر مقالاً واحداً من هذا الكتاب بعد ثلاث دقائق من قرائه.

مكتبة نوميديا 97
Telegram@ Numidia_Library

9 789778 200331
KAYAN PUBLISHING